تفسير سورة الكهف

وهى مائة وإحدى عشرة آية قال القرطبى : وهى مكية فى قول جميع المفسرين . وروى عن فرقة : أن أول السورة نـزل بالمدينة إلى قوله : ﴿ جرزا ﴾ والأول أصح . انتهى [١] . ومن القائلين إنها مكية جميعها ابن عباس ، أخرجه عنه النحاس وابن مردويه ومنهم ابن الزبير، أخرجه عنه ابن مردويه .

وقد ورد فى فضلها أحاديث : منها ما أخرجه أحمد ومسلم وأبـو داود والترمـذى والنسائى وغيرهـم عـن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » [٢] . وأخرج أحمد ومسلم والنسائى وابن حبان عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » [٣]. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن البراء قال : قرأ رجل سورة الكهف وفى الدار دابة فجعلت تنفر ، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته ، فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فقال : « اقرأ فلان ، فإن السكينة نزلت للقرآن » [٤] . وهذا الذى كان يقرأ هو أسيد بن حضير كما بينه الطبرانى . وأخرج الترمذى وصححه عن أبى الدرداء قال :قال رسول الله ﷺ : « من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » [٥] وفى قراءة العشر الآيات من أولها أو من آخرها أحاديث. وأخرج ابن مردويه، والضياء فى المختارة عن على قال: قال رسول الله ﷺ : « من قرأ الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون ، فإن خرج الدجال عصم منه » . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى والضياء عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة الكهف كانت له نورا من مقامه إلى مكة ، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره »[٦] . وأخرج الحاكم

---

(١) القرطبى ٦/ ٣٩٦٣ .

(٢) أحمد ٦/ ٤٤٩ ، ٤٥٠ ومسلم فى صلاة المسافرين (٨٠٩/ ٢٥٧) وأبو داود فى الملاحم (٤٣٢٣) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٦) وقال : « حسن صحيح » ، إلا أنه قال ثلاث بدلا من عشر آيات ، والنسائى فى السنن الكبرى فى فضائل القرآن (٨٠٢٥) .

(٣) أحمد ٦/ ٤٤٦ ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٩/ ٢٥٧) والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٧٨٥) وابن حبان (٧٨٣) .

(٤) البخارى فى المناقب (٣٦١٤) وفى التفسير (٤٨٣٩) وفى فضائل القرآن (٥٠١١) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٩٥/ ٢٤٠) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٥) وقال : « حسن صحيح » .

(٥) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٦) وقال : « حسن صحيح » .

(٦) صححه الحاكم ١/ ٥٦٤ على شرط مسلم وقال الذهبى : « ووقفه ابن مهدى عن الثورى عن أبى هاشم » ، والبيهقى موقوفا ٣/ ٢٤٩ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٦ : « رواه الطبرانى فى الأوسط فى حديث طويل وهو بتمامه فى كتاب الطهارة ، ورجاله رجال الصحيح » .

وصححه من حديث أبى سعيد ؛ أن النبى ﷺ قال : « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين » (١) . وأخرجه البيهقى أيضا فى السنن من هذا الوجه ومن وجه آخر (٢) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضىء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين»(٣) . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والأرض ، ولكاتبها من الأجر مثل ذلك ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله من أى الليل شاء ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله، قال : « سورة أصحاب الكهف » . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال : قال رسول الله ﷺ : «البيت الذى تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة » وفى الباب أحاديث وآثار ، وفيما أوردناه كفاية مغنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ للَّه الَّذي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْده الْكتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عوجًا (١) قَيّمًا لّيُنذرَ بَأْسًا شَديدًا منْ لَّدُنْهُ وَيُبَشّرَ الْمُؤْمنينَ الَّذينَ يَعْمَلُونَ الصَّالحَات أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكثينَ فيه أَبَدًا (٣) وَيُنذرَ الَّذينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُم به منْ علْمٍ وَلَا لآبَائهمْ كَبُرَتْ كَلمَةً تَخْرُجُ منْ أَفْوَاههمْ إن يَقُولُونَ إلاَّ كَذبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارهمْ إن لَّمْ يُؤْمنُوا بهَذَا الْحَديث أَسَفًا (٦) إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْض زينَةً لَّهَا لنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَملاً (٧) وَإنَّا لَجَاعلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعيدًا جُرُزًا (٨) ﴾ .

علم عباده كيف يحمدونه على إفاضة نعمه عليهم ، ووصفه بالموصول يشعر بعلية ما فى حيز الصلة لما قبله ووجه كون إنزال الكتاب ، وهو القرآن نعمة على رسول الله ﷺ : كونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد ، وأحوال الملائكة والأنبياء ، وعلى كيفية الأحكام الشرعية التى تعبده الله وتعبد أمته بها ، وكذلك العباد كان إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما ذكرناه فى النبى ﴿ **ولم يجعل له عوجا** ﴾ أى شيئا من العوج بنوع من أنواع الاختلال فى اللفظ والمعنى. والعوج بالكسر فى المعانى ، وبالفتح فى الأعيان كذا قيل ، ويرد عليه قوله سبحانه: ﴿ لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾ [طه: ١٠٧] يعنى: الجبال ، وهى من الأعيان. قال الزجاج:

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٣٦٨ وقال الذهبى : « قلت : نعيم ذو مناكير » .

(٢) البيهقى ٣/ ٢٤٩ .

(٣) قال ابن كثير ٤/ ٣٦٤ : « رواه ابن مردويه بإسناد له غريب وقال : هذا الحديث فى رفعه نظر ، وأحسن أحواله الوقف » .

المعنى فى الآية : لم يجعل فيها اختلافا كما قال : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ [النساء : ٨٢] . والقيم : المستقيم الذى لا ميل فيه ، أو القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية ، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمنا عليها ، وعلى الأول يكون تأكيدا لما دل عليه نفى العوج، فرب مستقيم فى الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج فى الحقيقة ، وانتصاب ﴿ **قيما** ﴾ بمضمر ، أى جعله قيما ، ومنع صاحب الكشاف [١] أن يكون حالا من الكتاب ، لأن قوله: ﴿ **ولم يجعل** ﴾ معطوف على ﴿ **أنزل** ﴾ فهو داخل فى حيز الصلة ، فجاعله حالا من الكتاب فاصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة. وقال الأصفهانى: هما حالان متواليان إلا أن الأول جملة والثانى مفرد ، وهذا صواب لأن قوله : ﴿ **ولم يجعل** ﴾ لم يكن معطوفا على ما قبله بل الواو للحال، فلا فصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة. وقيل : إن ﴿ **قيما** ﴾ حال من ضمير ﴿ **لم يجعل له** ﴾ . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا، ثم أراد سبحانه أن يفصل ما أجمله فى قوله قيما فقال :﴿ **لينذر بأسا شديدا** ﴾ وحذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم ، والمعنى: لينذر الكافرين. والبأس: العذاب، ومعنى ﴿**من لدنه**﴾: صادرا من لدنه نازلا من عنده. روى أبو بكر عن عاصم أنه قرأ: « من لدنه » بإشمام الدال الضمة، وبكسر النون والهاء. وهى لغة الكلابيين. وروى أبو زيد عن جميع القراء فتح اللام وضم الدال وسكون النون ﴿ **ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات** ﴾ قرئ : « يبشر » بالتشديد والتخفيف ، وأجرى الموصول على موصوفه المذكور ، لأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان ﴿ **أن لهم أجرا حسنا** ﴾ وهو الجنة حال كونهم ﴿ **ماكثين فيه** ﴾ أى فى ذلك الأجر ﴿ **أبدا** ﴾ أى مكثا دائما لا انقطاع له، وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار .

ثم كرر الإنذار وذكر المنذر لخصوصه وحذف المنذر به ، وهو البأس الشديد ، لتقدم ذكره فقال : ﴿ **وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا** ﴾ وهم اليهود والنصارى وبعض كفار قريش . القائلون بأن الملائكة بنات الله ، فذكر سبحانه أولا قضية كلية ، وهى إنذار عموم الكفار ، ثم عطف عليها قضية خاصة هى بعض جزئيات تلك الكلية ، تنبيها على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية . فأفاد ذلك أن نسبة الولد إلى الله سبحانه أقبح أنواع الكفر .

﴿ **ما لهم به من علم** ﴾ أى بالولد ، أو اتخاذ الله إياه ، و« من » مزيدة لتأكيد النفى ، والجملة فى محل نصب على الحال أو هى مستأنفة ، والمعنى : ما لهم بذلك علم أصلا ﴿ **ولا لآبائهم** ﴾ علم ، بل كانوا فى زعمهم هذا على ضلالة ، وقلدهم أبناؤهم فضلوا جميعا ﴿**كبرت كلمة تخرج من أفواههم** ﴾ انتصاب ﴿**كلمة**﴾ على التمييز ، وقرئ بالرفع على الفاعلية . قال الفراء : كبرت تلك الكلمة كلمة . وقال الزجاج : كبرت مقالتهم كلمة ، والمراد بهذه الكلمة هى قولهم : اتخذ الله ولدا . ثم وصف الكلمة بقوله : ﴿ **تخرج من أفواههم** ﴾ وفائدة هذا

(١) الكشاف ٢ / ٧٠٢ .

الوصف : استعظام اجترائهم على التفوه بها، والخارج من الفم وإن كان هو مجرد الهوى ، لكن لما كانت الحروف والأصوات كيفيات قائمة بالهوى أسند إلى الحال ما هو من شأن المحل . ثم زاد فى تقبيح ما وقع منهم فقال: ﴿ **إن يقولون إلا كذبا** ﴾ أى ما يقولون إلا كذبا لا مجال للصدق فيه بحال .

ثم سلى رسوله ﷺ بقوله : ﴿ **فلعلك باخع نفسك على آثارهم** ﴾ قال الأخفش والفراء : البخع:الجهد. وقال الكسائى : بخعت الأرض بالزراعة : إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة ، وبخع الرجل نفسه إذا نهكها . وقال أبو عبيدة : معناه : مهلك نفسك ، ومنه قول ذى الرمة :

ألا أيهاذا الباخع الوجد نفسه

فيكون المعنى على هذه الأقوال : لعلك مجهد نفسك أو مضعفها أو مهلكها ﴿ **على آثارهم**﴾ على فراقهم ومن بعد توليهم وإعراضهم ﴿ **إن لم يؤمنوا بهذا الحديث**﴾ أى القرآن : وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. وقرئ بفتح « أن » أى لأن لم يؤمنوا ﴿ **أسفا** ﴾ أى غيظا وحزنا وهو مفعول له أو مصدر فى موضع الحال ، كذا قال الزجاج .

﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها** ﴾ هذه الجملة استئناف . والمعنى : إنا جعلنا ما على الأرض مما يصلح أن يكون زينة لها من الحيوانات والنبات والجماد ، كقوله سبحانه : ﴿ **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا** ﴾ [البقرة: ٢٩] وانتصاب ﴿**زينة**﴾ على أنها مفعول ثان لـ ﴿**جعل**﴾ واللام فى ﴿ **لنبلوهم أيهم أحسن عملا**﴾ متعلقة بـ ﴿**جعلنا** ﴾ وهى إما للغرض أو للعاقبة، والمراد بالابتلاء : أنه سبحانه يعاملهم معاملة لو كانت تلك المعاملة من غيره لكانت من قبيل الابتلاء والامتحان . وقال الزجاج : ﴿ **أيهم** ﴾ رفع بالابتداء إلا أن لفظه لفظ الاستفهام ، والمعنى : لنمتحن أهذا أحسن عملا أم ذاك ؟ قال الحسن : أيهم أزهد . وقال مقاتل : أيهم أصلح فيما أوتى من المال .

ثم أعلم سبحانه أنه مبيد لذلك كله ومفنيه فقال : ﴿ **وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا** ﴾ أى لجاعلون ماعليها من هذه الزينة عند تناهى عمر الدنيا ﴿**صعيدا** ﴾ : ترابا . قال أبو عبيدة : الصعيد : المستوى من الأرض . وقال الزجاج : هو الطريق الذى لا نبات فيه . قال الفراء : الجرز: الأرض التى لا نبات فيها ، ومن قولهم : امرأة جرزا : إذا كانت أكولا، وسيفا جرازا: إذا كان مستأصلا ، وجرز الجراد والشاة والإبل :الأرض إذا أكلت ما عليها . قال ذو الرمة :

طوى النحز والإجراز ما فى بطونها

ومعنى النظم : لا تحزن يا محمد، مما وقع من هؤلاء من التكذيب ، فإنا قد جعلنا ما على الأرض زينة لاختبار أعمالهم، وإنا لمذهبون ذلك عند انقضاء عمر الدنيا ، فمجازوهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب** ﴾ الآية . قال : أنزل الكتاب عدلا قيما ﴿ **ولم يجعل له عوجا** ﴾ ملتبسا. وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ **قيما** ﴾ قال : مستقيما . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **من لدنه** ﴾ أى من عنده . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ﴿ **حسنا** ﴾ يعنى : الجنة ﴿ **وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا** ﴾ قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية بن خلف والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأبو البحترى فى نفر من قريش ، وكان رسول الله ﷺ قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه ، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة ، فأحزنه حزنا شديدا ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ **فلعلك باخع نفسك** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه ﴿ **باخع نفسك** ﴾ يقول : قاتل نفسك . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى مثله . أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **أسفا** ﴾ قال : جزعا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **أسفا** ﴾ قال : حزنا .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها** ﴾ قال : الرجال . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير من قوله مثله. وأخرج أبو نصر السجزى فى الإبانة من طريق مجاهد عن ابن عباس فى الآية قال : العلماء زينة الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : هم الرجال العباد العمال لله بالطاعة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم فى التاريخ ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **لنبلوهم أيهم أحسن عملا** ﴾ فقلت : ما معنى ذلك يا رسول الله ؟ قال : « ليبلوكم أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرعكم فى طاعة الله » (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : ليختبرهم ﴿ **أيهم أحسن عملا** ﴾ قال : أيهم أتم عقلا . وأخرج عن الحسن ﴿ **أيهم أحسن عملا** ﴾ قال : أشدهم للدنيا تركا ، وأخرج أيضا عن الثورى قال : أزهدهم فى الدنيا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا** ﴾ قال : يهلك كل شيء ويبيد . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : الصعيد : التراب والجبال التى ليس فيها زرع . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : يعنى بالجرز : الخراب .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ

(١) ابن جرير ١٢ / ٥ .

عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) ﴾ .

قوله : ﴿ **أم حسبت** ﴾ « أم » هى المنقطعة المقدرة ببل والهمزة عند الجمهور ، وببل وحدها عند بعضهم والتقدير: بل أحسبت ، أو بل حسبت ، ومعناها : الانتقال من حديث إلى حديث آخر ، لا لإبطال الأول والإضراب عنه كما هو معنى بل فى الأصل . والمعنى : أن القوم لما تعجبوا من قصة أصحاب الكهف ، وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان ، قال سبحانه : بل أظننت يا محمد أنهم كانوا عجبا من آياتنا فقط ؟ لاتحسب ذلك فإن آياتنا كلها عجب ، فإن من كان قادرا على جعل ما على الأرض زينة لها للابتلاء ، ثم جعل ما عليها صعيدا جرزا كأن لم تغن بالأمس ، لا تستبعد قدرته وحفظه ورحمته بالنسبة إلى طائفة مخصوصة ، وإن كانت قصتهم خارقة للعادة ، فإن آيات الله سبحانه كذلك وفوق ذلك . و﴿ **عجبا** ﴾ منتصبة على أنه خبر كان ، أى ذات عجب ، أو موصوفة بالعجب مبالغة ، ﴿ **من آياتنا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، و﴿ **إذ أوى الفتية** ﴾ ظرف لحسبت أو لفعل مقدر ، وهو اذكر، أى صاروا إليه وجعلوه مأواهم ، والفتية : هم أصحاب الكهف . والكهف : هو الغار الواسع فى الجبل . فإن كان صغيرا سمى غارا، والرقيم قال كعب والسدى: إنه اسم القرية التى خرج منها أصحاب الكهف. وقال سعيد بن جبير ومجاهد : إنه لوح من حجارة أو رصاص رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف . قال الفراء : ويروى أنه إنما سمى رقيما لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه . والرقم : الكتابة . وروى مثل ذلك عن ابن عباس . ومنه قول العجاج فى أرجوزة له :

ومستقرى المصحف الرقيم

وقيل : إن الرقيم : اسم كلبهم . وقيل : هو اسم الوادى الذى كانوا فيه . وقيل :اسم الجبل الذى فيه الغار . قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله ، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصة أصحاب الكهف ﴿**فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة** ﴾ أى من عندك ، و«من » ابتدائية متعلقة بـ ﴿ **آتنا** ﴾، أو لمحذوف وقع حالا ، والتنوين فى ﴿ **رحمة** ﴾ إما للتعظيم أو للتنويع ، وتقديم ﴿ **من لدنك** ﴾ للاختصاص، أى رحمة مختصة بأنها من خزائن رحمتك ، وهى المغفرة فى الآخرة والأمن من الأعداء ، والرزق فى الدنيا ﴿ **وهيئ لنا من أمرنا رشدا** ﴾ أى أصلح لنا ، من قولك: هيأت الأمر فتهيأ،

والمراد بأمرهم : الأمر الذى هم عليه وهو مفارقتهم للكفار . والرشد: نقيض الضلال ، و« من» للابتداء . ويجوز أن تكون للتجريد كما فى قولك : رأيت منك رشدا . وتقديم المجرورين للاهتمام بهما .

﴿ **فضربنا على آذانهم** ﴾ قال المفسرون : أنمناهم . والمعنى : سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات ، والمفعول محذوف ، أى ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيها للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها ، و﴿ **فى الكهف** ﴾ ظرف لضربنا ، وانتصاب ﴿ **سنين** ﴾ على الظرفية ، و﴿ **عددا** ﴾ صفة لسنين ، أى ذوات عدد على أنه مصدر، أو بمعنى : معدودة على أنه لمعنى المفعول ، ويستفاد من وصف السنين بالعدد : الكثرة. قال الزجاج: إن الشىء إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج إلى العدد ، وإن كثر احتاج إلى أن يعد . وقيل : يستفاد منه التقليل لأن الكثير قليل عند الله : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ [الحج : ٤٧] .

﴿ **ثم بعثناهم** ﴾ أى أيقظناهم من تلك النومة ﴿ **لنعلم** ﴾ أى ليظهر معلومنا ، وقرئ بالتحتية مبنيا للفاعل على طريقة الالتفات ، و﴿ **أى الحزبين** ﴾ مبتدأ معلق عنه العلم لما فى أى من الاستفهام ، وخبره ﴿ **أحصى** ﴾ وهو فعل ماض. قيل : والمراد بالعلم الذى جعل علة للبعث : هو الاختبار مجازا فيكون المعنى : بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ، والأولى ما ذكرناه من أن المراد به ظهور معلوم الله سبحانه لعباده ، والمراد بالحزبين : الفريقان من المؤمنين والكافرين من أصحاب الكهف المختلفين فى مدة لبثهم . ومعنى أحصى : أضبط . وكأنه وقع بينهم تنازع فى مدة لبثهم فى الكهف ، فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك ، ويظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه ، و« ما » فى ﴿**لما لبثوا**﴾ مصدرية ، أى أحصى للبثهم . وقيل : اللام زائدة ، و« ما » بمعنى : الذى و﴿ **أمدا** ﴾ تمييز ، والأمد : الغاية . وقيل : إن ﴿ **أحصى** ﴾ أفعل تفضيل. ورد بأنه خلاف ما تقرر فى علم الإعراب ، وما ورد من الشاذ لا يقاس عليه كقولهم : أفلس من ابن المذلق ، وأعدى من الجرب . وأجيب بأن أفعل التفضيل من المزيد قياس مطرد عند سيبويه وابن عصفور . وقيل : إن الحزبين هم أصحاب الكهف اختلفوا بعد انتباههم كم لبثوا . وقيل : إن أصحاب الكهف حزب وأصحابهم حزب . وقال الفراء : إن طائفتين من المسلمين فى زمان أصحاب الكهف اختلفوا فى مدة لبثهم .

﴿ **نحن نقص عليك نبأهم بالحق** ﴾ هذا شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله : ﴿ **إذ أوى الفتية** ﴾ أى نحن نخبرك بخبرهم بالحق ، أى قصصناه بالحق ، أو متلبسا بالحق ﴿ إنهم فتية﴾ أى أحداث شبان ، و﴿ **آمنوا بربهم** ﴾ صفة لـ ﴿ **فتية** ﴾. والجملة مستأنفة بتقدير سؤال . والفتية جمع قلة ، و﴿ **زدناهم هدى** ﴾ بالتثبيت والتوفيق ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب . ﴿ **وربطنا على قلوبهم** ﴾ أى قويناها بالصبر على هجر الأهل والأوطان ، وفراق الخلان والأخدان ﴿ **إذ قاموا** ﴾ الظرف منصوب بربطنا . واختلف أهل التفسير فى هذا القيام على

أقوال : فقيل: إنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد ، فقال رجل منهم هو أكبر القوم : إنى لأجد فى نفسى شيئا ، إن ربى رب السموات والأرض ، فقالوا : ونحن أيضا كذلك نجد فى أنفسنا، فقاموا جميعا ﴿ **فقالوا ربنا رب السموات والأرض** ﴾ قاله مجاهد . وقال أكثر المفسرين: إنه كان لهم ملك جبار يقال له : دقيانوس ، وكان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت ، فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه ﴿ **فقالوا ربنا رب السموات والأرض** ﴾ . وقال عطاء ومقاتل : إنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم ﴿ **لن ندعو من دونه إلها** ﴾ أى لن نعبد معبودا آخر غير الله لا اشتراكا ولا استقلالا ﴿ **لقد قلنا إذا شططا** ﴾ أى قولا ذا شطط، أو قولا هو نفس الشطط لقصد المبالغة بالوصف بالمصدر. واللام هى الموطئة للقسم ، والشطط : الغلو ومجاوزة الحد . قال أعشى بن قيس :

أتنتهون ولن ينهى ذوى شطط كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

﴿ **هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة** ﴾ ﴿ **هؤلاء** ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿ **اتخذوا** ﴾ ، و﴿**قومنا** ﴾ عطف بيان، وفى هذا الإخبار معنى للإنكار ، وفى الإشارة إليهم تحقير لهم ﴿ **لولا يأتون عليهم بسلطان بين** ﴾ أى هلا يأتون بحجة ظاهرة تصلح للتمسك بها ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا** ﴾ فزعم أن له شريكا فى العبادة، أى لا أحد أظلم منه.

﴿ **وإذ اعتزلتموهم** ﴾ أى فارقتموهم وتنحيتم عنهم جانبا ، أى عن العابدين للأصنام ، وقوله: ﴿ **وما يعبدون إلا الله** ﴾ معطوف على الضمير المنصوب، و« ما » موصولة أو مصدرية ، أى وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبودهم أو الذى يعبدونه ، وقوله : ﴿ **إلا الله** ﴾ استثناء منقطع على تقدير : أنهم لم يعبدوا إلا الأصنام ، أو متصل على تقدير : أنهم أشركوها فى العبادة مع الله سبحانه . وقيل : هو دليل على جوابه ، أى إذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا ، فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا ، وإذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف ﴿ **ينشر لكم ربكم من رحمته** ﴾ أى يبسط ويوسع ﴿ **ويهيئ لكم من أمركم مرفقا** ﴾ أى يسهل ويسرلكم من أمركم الذى أنتم بصدده ﴿ **مرفقا** ﴾ المرفق بفتح الميم وكسرها لغتان قرئ بهما، مأخوذ من الارتفاق وهو الانتفاع . وقيل : فتح الميم أقيس ، وكسرها أكثر . قال الفراء : وأكثر العرب على كسر الميم من الأمر ومن مرفق الإنسان ، وقد تفتح العرب الميم فيهما فهما لغتان ، وكأن الذين فتحوا أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الأمر ، والمرفق من الإنسان . وقال الكسائى : الكسر فى مرفق اليد . وقيل : المرفق بالكسر : ما ارتفقت به ، والمرفق بالفتح : الأمر الرافق ، والمراد هنا : ما يرتفقون به وينتفعون بحصوله ، والتقديم فى الموضعين يفيد الاختصاص .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : الرقيم : الكتاب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عنه قال : الرقيم : وادٍ دون فلسطين قريب من أيلة ، والراويان عن ابن عباس ضعيفان . وأخرج ابن جرير من طريق

ابن جريج عنه أيضا قال : هو الجبل الذى فيه الكهف . وأخرج ابن المنذر عنه ، قال: والله ما أدرى ما الرقيم الكتاب أم بنيان ؟ وفى رواية عنه من طريق أخرى قال : وسألت كعبا فقال : اسم القرية التى خرجوا منها . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال : الرقيم : الكلب . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كانوا من آياتنا عجبا** ﴾ يقول : الذى آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **فضربنا على آذانهم** ﴾ يقول : أرقدناهم ﴿**ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين** ﴾ من قوم الفتية، أهل الهدى، وأهل الضلالة ﴿ **أحصى لما لبثوا**﴾، وذلك أنهم كتبوا اليوم الذى خرجوا فيه والشهر والسنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ **وزدناهم هدى** ﴾ قال : إخلاصا ، وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وربطنا على قلوبهم** ﴾ قال : بالإيمان . وفى قوله : ﴿ **لقد قلنا إذا شططا** ﴾ قال : كذبا . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : جورا . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى فى قوله : ﴿ **وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله** ﴾ قال : كان قوم الفتية يعبدون الله ويعبدون معه آلهة شتى ، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله. وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآى قال : هى فى مصحف ابن مسعود ، وما يعبدون من دون الله ، فهذا تفسيرها .

﴿ **وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا (١٧) وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا (١٨) وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا (١٩) إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا (٢٠)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وترى الشمس إذا طلعت** ﴾ شرع سبحانه فى بيان حالهم ، بعد ما أووا إلى الكهف . ﴿ **تزاور**﴾ قرأ أهل الكوفة بحذف تاء التفاعل ، وقرأ ابن عامر : « تزور » قال الأخفش : لا يوضع الازورار فى هذا المعنى ، إنما يقال : هو مزور عنى ، أى منقبض . وقرأ الباقون بتشديد الزاى وإدغام تاء التفاعل فيه بعد تسكينها. وتزاور مأخوذ من الزور بفتح الواو ، وهو الميل ، ومنه زاره إذا مال إليه ، والزور : الميل . فمعنى الآية : أن الشمس إذا طلعت تميل

وتتنحى ﴿ **عن كهفهم** ﴾ قال الراجز الكلبى :

جاب المندا عن هوانا أزور

أى مائل ﴿ **ذات اليمين** ﴾ أى ناحية اليمين، وهى الجهة المسماة باليمين، وانتصاب ﴿**ذات**﴾ على الظرف ، ﴿ **وإذا غربت تقرضهم** ﴾ القرض : القطع . قال الكسائى والأخفش والزجاج وأبو عبيدة : تعدل عنهم وتتركهم ، قرضت المكان : عدلت عنه ، تقول لصاحبك : هل وردت مكان كذا ؟ فيقول : إنما قرضته : إذا مر به وتجاوز عنه ، والمعنى : أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أى يمين الكهف ، وإذا غربت تمر ﴿ **ذات الشمال** ﴾ أى شمال الكهف لا تصيبه . بل تعدل عن سمته إلى الجهتين ، والفجوة : المكان المتسع ، وجملة : ﴿ **وهم فى فجوة منه** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وللمفسرين فى تفسير هذه الجملة قولان : الأول : أنهم مع كونهم فى مكان منفتح انفتاحا واسعا فى ظل جميع نهارهم لا تصيبهم الشمس فى طلوعها ولا فى غروبها ، لأن الله سبحانه حجبها عنهم . والثانى : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف، وإذا غربت كانت عن يساره ، ويؤيد القول الأول قوله : ﴿ **ذلك من آيات الله** ﴾ فإن صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة إلى مكان تصل إليه عادة أنسب بمعنى كونها آية ، ويؤيده أيضا إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا ، ومما يدل على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر :

ألبست قومك مخزاة ومنقصة حتى أبيحوا وخلوا فجوة الدار

ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله : ﴿ **من يهد الله** ﴾ أى إلى الحق ﴿ **فهو المهتد** ﴾ الذى ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح ﴿ **ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** ﴾ أى ناصرا يهديه إلى الحق كدقيانوس وأصحابه .

ثم حكى سبحانه طرفا آخر من غرائب أحوالهم فقال : ﴿ **وتحسبهم أيقاظا** ﴾ جمع يقظ بكسر القاف وفتحها ﴿ **وهم رقود** ﴾ أى نيام ، وهو جمع راقد كقعود فى قاعد . قيل : وسبب هذا الحسبان أن عيونهم كانت مفتحة وهم نيام . وقال الزجاج : لكثرة تقلبهم ﴿ **ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال** ﴾ أى نقلبهم فى رقدتهم إلى الجهتين لئلا تأكل الأرض أجسادهم ﴿**وكلبهم باسط ذراعيه** ﴾ حكاية حال ماضية ، لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان بمعنى المضى كما تقرر فى علم النحو . قال أكثر المفسرين : هربوا من ملكهم ليلا ، فمروا براع معه كلب فتبعهم . والوصيد : قال أبو عبيد وأبو عبيدة : هو فناء الباب ، وكذا قال المفسرون . وقيل : العتبة ، ورد بأن الكهف لا يكون له عتبة ولا باب ، وإنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت ﴿ **لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا** ﴾ قال الزجاج : فرارا منصوب على المصدرية بمعنى التولية ، والفرار : الهرب ﴿ **ولملئت** ﴾ قرئ بتشديد اللام وتخفيفها ﴿ **منهم رعبا** ﴾ قرئ

بسكون العين وضمها ، أى خوفا يملأ الصدر ، وانتصاب ﴿ **رعبا** ﴾ على التمييز ، أو على أنه مفعول ثان . وسبب الرعب الهيبة التى ألبسهم الله إياها . وقيل : طول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ووحشة مكانهم ، ويدفعه قوله تعالى : ﴿ **لبثنا يوما أو بعض يوم** ﴾ فإن ذلك يدل على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئا ولا وجدوا من أظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدة .

﴿ **وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم** ﴾ الإشارة إلى المذكور قبله ، أى وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات بعثناهم من نومهم ، وفيه تذكير لقدرته على الإماتة والبعث جميعا ، ثم ذكر الأمر الذى لأجله بعثهم فقال : ليتساءلوا بينهم ، أى ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع فى مدة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور القدرة الباهرة ، والاقتصار على علة التساؤل لا ينفى غيرها ، وإنما أفرده لاستتباعه لسائر الآثار ، وجملة : ﴿ **قال قائل منهم كم لبثتم** ﴾ مبينة لما قبلها من التساؤل ، أى كم مدة لبثكم فى النوم ؟ قالوا ذلك لأنهم رأوا فى أنفسهم غير ما يعهدونه فى العادة ﴿ **قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم** ﴾ أى قال بعضهم جوابا عن سؤال من سأل منهم، قال المفسرون: إنهم دخلوا الكهف غدوة، وبعثهم الله سبحانه آخر النهار ، فلذلك قالوا: يوما ، فلما رأوا الشمس قالوا : أو بعض يوم ، وكان قد بقيت بقية من النهار ، وقد مر مثل هذا الجواب فى قصة عزير فى البقرة. ﴿ **قالوا ربكم أعلم بما لبثتم** ﴾ أى قال البعض الآخر هذا القول ، إما على طريق الاستدلال ، أو كان ذلك إلهاما لهم من الله سبحانه ، أى أنكم لا تعلمون مدة لبثكم ، وإنما يعلمها الله سبحانه ﴿ **فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة** ﴾ أعرضوا عن التحاور فى مدة اللبث ، وأخذوا فى شىء آخر ، كأنه قال القائل منهم : اتركوا ما أنتم فيه من المحاورة ، وخذوا فى شىء آخر مما يهمكم ، والفاء : للسببية ، والورق : الفضة مضروبة أو غير مضروبة. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائى وحفص عن عاصم بكسر الراء ، وقرأ أبو عمرو وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم بسكونها ، وقرئ بكسر الراء وإدغام القاف فى الكاف ، وقرأ ابن محيصن بكسر الواو وسكون الراء . وفى حملهم لهذه الورق معهم دليل على أن إمساك بعض ما يحتاج إليه الإنسان لا ينافى التوكل على الله ، والمدينة : دقسوس ، وهى مدينتهم التى كانوا فيها ، ويقال لها اليوم : طرسوس ، كذا قال الواحدى : ﴿ **فلينظر أيها أزكى طعاما** ﴾ أى ينظر أى أهلها أطيب طعاما ، وأحل مكسبا ، أو أرخص سعرا . وقيل : يجوز أن يعود الضمير إلى الأطعمة المدلول عليها فى المقام كما يقال : زيد طبت أبا ، على أن الأب هو زيد ، وفيه بعد . واستدل بالآية على حل ذبائح أهل الكتاب لأن عامة أهل المدينة كانوا كفارا ، وفيهم قوم يخفون إيمانهم ، ووجه الاستدلال أن الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره مما يطلق عليه اسم الطعام ﴿**وليتلطف**﴾ أى يدقق النظرحتى لا يعرف أولا يغبن ، والأول أولى ، ويؤيده ﴿ **ولا يشعرن بكم أحدا** ﴾ أى لا يفعلن ما يؤدى إلى الشعور ويتسبب له ، فهذا النهى يتضمن التأكيد للأمر بالتلطف .

ثم علل ما سبق من الأمر والنهى فقال : ﴿ **إنهم إن يظهروا عليكم** ﴾ أى يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم ، يعنى : أهل المدينة ﴿ **يرجموكم** ﴾ يقتلوكم بالرجم ، وهذه القتلة هى أخبث قتلة، وكان ذلك عادة لهم، ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل ﴿ **أو يعيدوكم فى ملتهم**﴾ أى يردوكم إلى ملتهم التى كنتم عليها قبل أن يهديكم الله، أو المراد بالعود هنا : الصيرورة على تقدير أنهم لم يكونوا على ملتهم ، وإيثار كلمة « فى » على كلمة « إلى » للدلالة على الاستقرار ﴿ **ولن تفلحوا إذا أبدا** ﴾ فى ﴿ **إذا** ﴾ معنى الشرط ، كأنه قال : إن رجعتم إلى دينهم فلن تفلحوا إذا أبدا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **تزاور** ﴾ قال : تميل ، وفى قوله : ﴿**تقرضهم** ﴾ قال : تذرهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **تقرضهم**﴾ قال : تتركهم ، ﴿ **وهم فى فجوة منه** ﴾ قال : المكان الداخل . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ، قال: الفجوة: الخلوة من الأرض ، ويعنى بالخلوة : الناحية من الأرض . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ونقلبهم**﴾ الآية قال : ستة أشهر على ذى الجنب اليمين ، وستة أشهر على ذى الجنب الشمال. وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير فى الآية قال : كى لا تأكل الأرض لحومهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد أن اسم كلبهم : قطمورا . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : اسمه قطمير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **بالوصيد** ﴾ قال : بالفناء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : بالباب . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **أزكى طعاما**﴾ قال : أحل ذبيحة ، وكانوا يذبحون للطواغيت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿ **أزكى طعاما** ﴾ يعنى : أطهر ، لأنهم كانوا يذبحون للطواغيت .

﴿ **وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وكذلك أعثرنا عليهم** ﴾ أى وكما أنمناهم وبعثناهم ، أعثرنا عليهم، أى أطلعنا الناس عليهم وسمى الإعلام : إعثارا ؛ لأن من كان غافلا عن شىء فعثر به نظر إليه وعرفه ، فكان الإعثار سببا لحصول العلم ﴿**ليعلموا أن وعد الله حق**﴾ أى ليعلم الذين أعثرهم الله عليهم أن وعد الله بالبعث حق . قيل : وكان ملك ذلك العصر ممن ينكر البعث ، فأراه الله هذه الآية . قيل : وسبب الإعثار عليهم أن ذلك الرجل الذى بعثوه بالورق ، وكانت من ضربة دقيانوس، إلى السوق ، لما اطلع عليها أهل السوق اتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به إلى الملك ، فقال له : من أين وجدت هذه الدراهم ؟ قال : بعت بها أمس شيئا من التمر ، فعرف الملك صدقه ، ثم قص عليه القصة فركب الملك وركب أصحابه معه حتى وصلوا إلى الكهف ﴿**وأن الساعة لا ريب فيها** ﴾ أى وليعلموا أن القيامة لا شك فى حصولها ، فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من البعث ﴿ **إذ يتنازعون بينهم أمرهم** ﴾ الظرف متعلق بـ ﴿ **أعثرنا** ﴾ ، أى أعثرنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين أولئك الذين أعثرهم الله فى أمر البعث . وقيل : فى أمر أصحاب الكهف فى قدر مكثهم ، وفى عددهم ، وفيما يفعلونه بعد أن اطلعوا عليهم ﴿**فقالوا ابنوا عليهم بنيانا** ﴾ لئلا يتطرق الناس إليهم، وذلك أن الملك وأصحابه لما وقفوا عليهم وهم أحياء أماتت الله الفتية ، فقال بعضهم : ابنوا عليهم بنيانا يسترهم عن أعين الناس .

ثم قال سبحانه حاكيا لقول المتنازعين فيهم وفى عددهم ، وفى مدة لبثهم ، وفى نحو ذلك مما يتعلق بهم: ﴿ **ربهم أعلم بهم** ﴾ من هؤلاء المتنازعين فيهم ، قالوا ذلك تفويضا للعلم إلى الله سبحانه . وقيل : هو من كلام الله سبحانه ، ردا لقول المتنازعين فيهم ، أى دعوا ما أنتم فيه من التنازع ، فإنى أعلم بهم منكم . وقيل : إن الظرف فى ﴿ **إذ يتنازعون** ﴾ متعلق بمحذوف هو اذكر ، ويؤيده أن الإعثار ليس فى زمن التنازع بل قبله ، ويمكن أن يقال : إن أولئك القوم ما زالوا متنازعين فيما بينهم قرنا بعد قرن، منذ أووا إلى الكهف إلى وقت الإعثار، ويؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوبا على باب الغار ، كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون إيمانهم كما قاله المفسرون ﴿ **قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا** ﴾ ذكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون . وقيل : هم أهل السلطان . والملك من القوم المذكورين فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم، والأول أولى . قال الزجاج: هذا يدل على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور . لأن المساجد للمؤمنين .

﴿ **سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم** ﴾ هؤلاء القائلون بأنهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة ، هم المتنازعون فى عددهم فى زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمسلمين . وقيل : هم أهل الكتاب خاصة ، وعلى كل تقدير فليس المراد أنهم جميعا قالوا جميع ذلك بل قال بعضهم بكذا، وبعضهم بكذا ، وبعضهم بكذا ﴿ **ثلاثة رابعهم كلبهم** ﴾ أى هم ثلاثة أشخاص ، وجملة:

﴿**رابعهم كلبهم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى حال كون كلبهم جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم ﴿**ويقولون خمسة سادسهم كلبهم** ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما قبله ، وانتصاب ﴿**رجما بالغيب** ﴾ على الحال ، أى راجمين أو على المصدر ، أى يرجمون رجما ، والرجم بالغيب : هو القول بالظن والحدس من غير يقين ، والموصوفون بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين القائلين بأنهم ثلاثة ، والقائلين بأنهم خمسة ﴿ **ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم** ﴾ كأن قول هذه الفرقة أقرب إلى الصواب بدلالة عدم إدخالهم فى سلك الراجمين بالغيب . قيل : وإظهار الواو فى هذه الجملة يدل على أنها مرادة فى الجملتين الأوليين . قال أبو على الفارسى قوله : ﴿ **رابعهم كلبهم** ﴾ و﴿**سادسهم كلبهم** ﴾ جملتان استغنى عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الأولى وهى قوله : ﴿ **ثلاثة** ﴾ والتقدير : هم ثلاثة ، هكذا حكاه الواحدى عن أبى على ، ثم قال : وهذا معنى قول الزجاج فى دخول الواو فى : ﴿ **وثامنهم** ﴾ وإخراجها من الأول . وقيل : هى مزيدة للتوكيد . وقيل : إنها واو الثمانية ، وإن ذكره متداول على ألسن العرب إذا وصلوا إلى الثمانية كما فى قوله تعالى : ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : ٧٣] وقوله : ﴿ ثيبات وأبكارا ﴾ [التحريم : ٥] .

ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يخبر المختلفين فى عددهم بما يقطع التنازع بينهم فقال : ﴿ **قل ربى أعلم بعدتهم** ﴾ منكم أيها المختلفون ، ثم أثبت علم ذلك لقليل من الناس فقال : ﴿ **ما يعلمهم** ﴾ أى يعلم ذواتهم فضلا عن عددهم ، أو ما يعلم عددهم على حذف المضاف ﴿ **إلا قليل** ﴾ من الناس . ثم نهى الله سبحانه رسوله ﷺ عن الجدال مع أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف فقال : ﴿ **فلا تمار فيهم** ﴾ المراء فى اللغة : الجدال ، يقال : مارى يمارى مماراة ومراء : أى جادل ، ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان ظاهرا واضحا فقال: ﴿ **إلا مراء ظاهرا**﴾ أى غير متعمق فيه وهو أن يقص عليهم ما أوحى الله إليه فحسب . وقال الرازى : هو ألا يكذبهم فى تعيين ذلك العدد، بل يقول : هذا التعيين لا دليل عليه ، فوجب التوقف ، ثم نهاه سبحانه عن الاستفتاء فى شأنهم فقال : ﴿**ولاتستفت فيهم منهم أحدا** ﴾ أى لا تستفت فى شأنهم من الخائضين فيهم أحدا منهم ، لأن المفتى يجب أن يكون أعلم من المستفتى ، وهاهنا الأمر بالعكس ، ولاسيما فى واقعة أهل الكهف ، وفيما قص الله عليك فى ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له .

﴿ **ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا** ﴾ أى لأجل شىء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان، فعبر عنه بالغد ، ولم يرد الغد بعينه، فيدخل فيه الغد دخولا أوليا . قال الواحدى : قال المفسرون :لما سألت اليهود النبى ﷺ عن خبر الفتية فقال : « أخبركم غدا » ، ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس الوحى عنه حتى شق عليه ، فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله يقول : إذا قلت لشىء : إنى فاعل ذلك غدا ، فقل : إن شاء الله . وقال الأخفش والمبرد والكسائى والفراء : لا تقولن لشىء : إنى فاعل ذلك غدا ، إلا أن تقول : إن شاء الله ،

فأضمر القول ولما حذف تقول نقل شاء إلى لفظ الاستقبال . قيل : وهذا الاستثناء مفرغ ، أى لا تقولن ذلك فى حال من الأحوال ،إلا حال ملابسته لمشيئة الله وهو أن تقول: إن شاء الله ، أو فى وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله مطلقا . وقيل : الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل : لا تقولنه أبدا كقوله : ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ﴾ [الأعراف : ٨٩] . لأن عودهم فى ملتهم مما لا يشاؤه الله .

﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ الاستثناء بمشيئة الله ، أى فقل : إن شاء الله ، سواء كانت المدة قليلة أو كثيرة. وقد اختلف أهل العلم فى المدة التى يجوز إلحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على أقوال معروفة فى مواضعها . وقيل : المعنى: ﴿ **واذكر ربك** ﴾ بالاستغفار ﴿ **إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا** ﴾ المشار إليه بقوله : ﴿ **من هذا** ﴾ هو نبأ أصحاب الكهف ، أى قل يا محمد : عسى أن يوفقنى ربى لشىء أقرب من هذا النبأ من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى . قال الزجاج : عسى أن يعطينى ربى من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب فى الرشد وأدل من قصة أصحاب الكهف ، وقد فعل الله به ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم ما كان أوضح فى الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف . وقيل : الإشارة إلى قوله : ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ أى عسى أن يهدينى ربى عند هذا النسيان لشىء آخر بدل هذا المنسى ، وأقرب منه رشدا وأدنى منه خيرا ومنفعة ، والأول أولى .

﴿ **ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا** ﴾ قرأ الجمهور بتنوين ﴿ **مائة** ﴾ ونصب ﴿**سنين** ﴾ ، فيكون سنين على هذه القراءة بدلا أو عطف بيان . وقال الفراء وأبو عبيدة والزجاج والكسائى : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : سنين ثلاثمائة . ورجح الأول أبو على الفارسى . وقرأ حمزة والكسائى بإضافة مائة إلى سنين ، وعلى هذه القراءة تكون سنين تمييزا على وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله تعالى : ﴿ بالأخسرين أعمالا ﴾ [الكهف : ١٠٣] قال الفراء : ومن العرب من يضع سنين موضع سنة . قال أبو على الفارسى : هذه الأعداد التى تضاف فى المشهور إلى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى المجموع ، وفى مصحف عبد الله: « ثلثمائة سنة ». وقال الأخفش : لا تكاد العرب تقول: مائة سنين . وقرأ الضحاك : « ثلثمائة سنون » بالواو . وقرأ الجمهور : ﴿**تسعا** ﴾ بكسر التاء . وقرأ أبو عمرو بفتحها ، وهذا إخبار من الله سبحانه بمدة لبثهم .

قال ابن جرير : إن بنى إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، فأخبر الله نبيه ﷺ أن هذه المدة فى كونهم نياما ، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر، فأمر الله أن يرد علم ذلك إليه ، فقال : ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ قال ابن عطية : فقوله على هذا لبثوا الأول : يريد فى يوم الكهف ، ولبثوا الثانى : يريد بعد الإعثار عليهم إلى مدة محمد ﷺ ، أو إلى أن ماتوا . وقال بعضهم : إنه لما قال :

﴿ **وازدادوا تسعا** ﴾ لم يدر الناس أهى ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام . واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك ، فأمر الله برد العلم إليه فى التسع ، فهى على هذا مبهمة . والأول أولى ؛ لأن الظاهر من كلام العرب المفهوم بحسب لغتهم أن التسع أعوام بدليل أن العدد فى هذا الكلام للسنين لا للشهور ولا للأيام ولا للساعات . وعن الزجاج أن المراد : ثلاثمائة سنة شمسية وثلاثمائة وتسع سنين قمرية ، وهذا إنما يكون من الزجاج على جهة التقريب .

ثم أكد سبحانه اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله : ﴿ **له غيب السموات والأرض** ﴾ أى ما خفى فيهما وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شىء ، ثم زاد فى المبالغة والتأكيد فجاء بما يدل على التعجب من إدراكه للمبصرات والمسموعات فقال : ﴿ **أبصر به وأسمع** ﴾ فأفاد هذا التعجب على أن شأنه سبحانه فى علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين ، وأنه يستوى فى علمه الغائب والحاضر ،والخفى والظاهر ،والصغير والكبير واللطيف والكثيف، وكأن أصله ما أبصره وما أسمعه ، ثم نقل بإلى صيغة الأمر للإنشاء ، والباء زائدة عند سيبويه وخالفه الأخفش ، والبحث مقرر فى علم النحو ﴿ **ما لهم من دونه من ولى** ﴾ الضمير لأهل السموات والأرض . وقيل : لأهل الكهف . وقيل :لمعاصرى محمد ﷺ من الكفار ، أى ما لهم من موال يواليهم أو يتولى أمورهم أو ينصرهم ، وفى هذا بيان لغاية قدرته وأن الكل تحت قهره ﴿ **ولا يشرك فى حكمه أحدا** ﴾ قرأ الجمهوربرفع الكاف فى ﴿ **يشرك** ﴾ على الخبر عن الله سبحانه . وقرأ ابن عباس والحسن وأبورجاء وقتادة بالتاء الفوقية وإسكان الكاف على أنه نهى للنبى ﷺ أن يجعل الله شريكا فى حكمه ، ورويت هذه القراءة عن ابن عامر . وقرأ مجاهد بالتحتية والجزم . قال يعقوب : لا أعرف وجهها ، والمراد بحكم الله : مايقضيه، أو علم الغيب . والأول أولى. ويدخل علم الغيب فى ذلك دخولا أوليا، فإن علمه سبحانه من جملة قضائه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وكذلك أعثرنا عليهم** ﴾ قال: أطلعنا. وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:﴿ **قال الذين غلبوا على أمرهم** ﴾ قال : الأمراء ، أو قال : السلاطين . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **سيقولون ثلاثة** ﴾ قال : اليهود ﴿ **ويقولون خمسة** ﴾ قال : النصارى . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **رجما بالغيب** ﴾ قال : قذفا بالظن . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **ما يعلمهم إلا قليل** ﴾ قال : أنا من القليل كانوا سبعة . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس ، قال السيوطى : بسند صحيح ، فى قوله : ﴿ **ما يعلمهم إلا قليل** ﴾ قال : أنا من أولئك القليل كانوا سبعة ، ثم ذكر أسماءهم . وحكاه ابن كثير عن ابن عباس فى رواية قتادة وعطاء وعكرمة ، ثم قال:فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلا تمار فيهم** ﴾ يقول : حسبك ما قصصت عليك .

obeikandi.com

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ولا تستفت فيهم منهم أحدا** ﴾ قال : اليهود .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس في قوله: ﴿ **ولا تقولن لشيء** ﴾ الآية قال : إذا نسيت أن تقول لشيء إني أفعله فنسيت أن تقول : إن شاء الله ، فقل إذا ذكرت: إن شاء الله . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه عنه أنه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ، ثم قرأ : ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عنه أيضا في الآية قال: هي خاصة لرسول الله ﷺ وليس لأحد أن يستثني إلا في صلة يمين . وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر قال: كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه ، وإذا كان غير موصول فهو حانث. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ـ وفي رواية : تسعين ـ تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله ، فقال له الملك : قل إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان» قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لو قال : إن شاء الله لم يحنث ، وكان دركا لحاجته » [(١)] . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن عكرمة : ﴿ **إذا نسيت** ﴾ قال : إذا غضبت . وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن الحسن : ﴿ **إذا نسيت** ﴾ قال : إذا لم تقل : إن شاء الله .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك فيهوى أبعد ما بين السماء والأرض ، ثم تلا : ﴿ **ولبثوا في كهفهم** ﴾ الآية ، ثم قال : كم لبث القوم ؟ قالوا : ثلاثمائة وتسع سنين ، قال : لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله : ﴿**قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ ولكنه حكى مقالة القوم فقال : ﴿**سيقولون ثلاثة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **رجما بالغيب** ﴾ فأخبر أنهم لا يعلمون ، ثم قال : ﴿**سيقولون** ﴾ : ﴿ **ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في حرف ابن مسعود ، وقالوا : ﴿ **ولبثوا في كهفهم** ﴾ الآية : يعني : إنما قاله الناس ألا ترى أنه قال : ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن الضحاك عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة** ﴾ قيل: يا رسول الله ، أياما أم أشهرا أم سنين ؟ فأنزل الله : ﴿ **سنين وازدادوا تسعا** ﴾ . وأخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك بدون ذكر ابن عباس . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿**أبصر به وأسمع** ﴾ قال : الله يقوله .

---

(١) البخاري معلقا في الجهاد (٢٨١٩) وفي النكاح موصولا (٥٢٤٢) وفيه : « مائة امرأة » ومسلم في الأيمان (١٦٥٤/ ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥) والنسائي في التفسير (٣٢٢) .

obeikandl.com

﴿ **وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا** (٢٧) **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** (٢٨) **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا** (٢٩) **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** (٣٠) **أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا** (٣١) ﴾ .

قوله: ﴿ **واتل ما أوحى إليك** ﴾ أمره الله سبحانه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه، قيل : ويحتمل أن يكون معنى قوله : ﴿ **واتل** ﴾ : واتبع ، أمرا من التلو ، لا من التلاوة ، و﴿**من كتاب ربك** ﴾ بيان للذى أوحى إليه ﴿ **لامبدل لكلماته** ﴾ أى لا قادر على تبديلها وتغييرها، وإنما يقدر على ذلك هو وحده . قال الزجاج : أى ما أخبر الله به وما أمر به فلا مبدل له، وعلى هذا يكون التقدير: لا مبدل لحكم كلماته ﴿ **ولن تجد من دونه ملتحدا** ﴾ الملتحد: الملتجأ ، وأصل اللحد : الميل . قال الزجاج : لن تجد معدلا عن أمره ونهيه ، والمعنى: أنك إن لم تتبع القرآن وتتله وتعمل بأحكامه لن تجد معدلا تعدل إليه ومكانا تميل إليه، وهذه الآية آخر قصة أهل الكهف .

ثم شرح سبحانه فى نوع آخر كما هو دأب الكتاب العزيز فقال : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم**﴾ قد تقدم فى الأنعام نهيه ﷺ عن طرد فقراء المؤمنين بقوله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ [الأنعام: ٥٢] وأمره سبحانه ههنا بأن يحبس نفسه معهم ، فصبر النفس هو حبسها ، وذكر الغداة والعشى كناية عن الاستمرار على الدعاء فى جميع الأوقات . وقيل : فى طرفى النهار ، وقيل : المراد : صلاة العصر والفجر . وقرأ نصر بن عاصم ومالك ابن دينار وأبو عبد الرحمن وابن عامر : « بالغدوة » بالواو ، واحتجوا بأنها فى المصحف كذلك مكتوبة بالواو . قال النحاس : وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو ، ولا تكاد العرب تقول : الغدوة، ومعنى ﴿ **يريدون وجهه** ﴾ : أنهم يريدون بدعائهم رضى الله سبحانه ، والجملة فى محل نصب على الحال ، ثم أمره سبحانه بالمراقبة لأحوالهم فقال : ﴿ **ولا تعد عيناك عنهم**﴾ أى لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم . قال الفراء : معناه : لا تصرف عيناك عنهم ، وقال الزجاج : لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة، واستعماله بعن لتضمنه معنى النبو ، من عدوته عن الأمر ، أى صرفته منه. وقيل : معناه : لا تحتقرهم عيناك ﴿ **تريد زينة الحياة الدنيا** ﴾ أى مجالسة أهل الشرف والغنى ، والجملة فى محل نصب على الحال، أى حال كونك مريدا

لذلك ، هذا إذا كان فاعل ﴿ **تريد** ﴾ هو النبى ﷺ ، وإن كان الفاعل ضميرا يعود إلى العينين، فالتقدير : مريدة زينة الحياة الدنيا ، وإسناد الإرادة إلى العينين مجاز ، وتوحيد الضمير للتلازم كقول الشاعر :

لمن زحلوقة زل بها العينان تنهل

﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾ أى جعلناه غافلا بالختم عليه ، نهى رسول الله ﷺ عن طاعة من جعل الله قلبه غافلا عن ذكره كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحى الفقراء عن مجلسه ، فإنهم طالبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه وهم غافلون عن ذكر الله ، ومع هذا فهم ممن اتبع هواه وآثره على الحق فاختار الشرك على التوحيد ﴿ **وكان أمره فرطا** ﴾ أى متجاوزا عن حد الاعتدال ، من قولهم : فرس فرط : إذا كان متقدما للخيل ، فهو على هذا من الإفراط . وقيل : هو من التفريط ، وهو التقصير والتضييع . قال الزجاج : ومن قدم العجز فى أمره أضاعه وأهلكه .

ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ ما يقوله لأولئك الغافلين ، فقال : ﴿ **وقل الحق من ربكم** ﴾ أى قل لهم : إن ماأوحى إليك وأمرت بتلاوته هو الحق الكائن من جهة الله ، لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل والتغيير . وقيل : المراد بالحق : الصبر مع الفقراء . قال الزجاج : أى الذين أتيتكم به الحق من ربكم يعنى : لم آتكم به من قبل نفسى إنما أتيتكم به من الله ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ قيل : هو من تمام القول الذى أمر رسوله أن يقوله ، والفاء لترتيب ما قبلها على ما بعدها ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه لا من القول الذى أمر به رسول الله ﷺ ، وفيه تهديد شديد ، ويكون المعنى : قل لهم يا محمد : الحق من ربكم ، وبعد أن تقول لهم هذا القول ، من شاء أن يؤمن بالله ويصدقك فليؤمن ، ومن شاء أن يكفر به ويكذبك فليكفر . ثم أكد الوعيد وشدده فقال : ﴿ **إنا أعتدنا للظالمين** ﴾ أى أعددنا وهيأنا للظالمين الذين اختاروا الكفر بالله والجحد له والإنكار لأنبيائه نارا عظيمة ﴿ **أحاط بهم سرادقها** ﴾ أى اشتمل عليهم. والسرادق : واحد السرادقات . قال الجوهرى : وهى التى تمد فوق صحن الدار، وكل بيت من كرسف فهو سرادق ، ومنه قول رؤبة :

يا حكم بن المنذر بن جارود سرادق المجد عليك ممدود

وقال الشاعر :

هو المدخل النعمان بيتا سماؤه صدور الفيول بعد بيت مسردق

يقوله سلام بن جندل لما قتل ملك الفرس ملك العرب النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة. وقال ابن الأعرابى: سرادقها: سورها . وقال القتيبى : السرادق : الحجرة التى تكون حول الفسطاط . والمعنى : أنه أحاط بالكفار سرادق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسرادق المحيط بمن فيه ﴿ **وإن يستغيثوا** ﴾ من حر النار ﴿ **يغاثوا بماء كالمهل** ﴾ وهو الحديد المذاب .

قال الزجاج : إنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر . وقيل : هو دردى الزيت . وقال أبو عبيدة والأخفش : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس . وقيل : هو ضرب من القطران . ثم وصف هذا الماء الذى يغاثون به بأنه ﴿ **يشوى الوجوه** ﴾ إذا قدم إليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته ﴿ **بئس الشراب** ﴾ شرابهم هذا ﴿**وساءت**﴾ النار ﴿**مرتفقا** ﴾ متكأ، يقال : ارتفقت، أى اتكأت ، وأصل الارتفاق : نصب المرفق . ويقال: ارتفق الرجل : إذا نام على مرفقه ، وقال القتيبى: هو المجلس ، وقيل : المجتمع .

﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ هذا شروع فى وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين . والمعنى: إن الذين آمنوا بالحق الذى أوحى إليك وعملوا الصالحات من الأعمال ﴿**إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا** ﴾ هذا خبر ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ ، والعائد محذوف ، أى من أحسن منهم عملا ، وجملة : ﴿ **أولئك لهم جنات عدن** ﴾ استئناف لبيان الأجر، والإشارة إلى من تقدم ذكره. وقيل : يجوز أن يكون ﴿ **أولئك** ﴾ خبر ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ ، وتكون جملة : ﴿ **إنا لا نضيع** ﴾ اعتراضا ، ويجوز أن يكون ﴿ **أولئك** ﴾ خبرا بعد خبر ، وقد تقدم الكلام فى ﴿ **جنات عدن** ﴾ ، وفى كيفية جرى الأنهار من تحتها ﴿ **يحلون فيها من أساور من ذهب** ﴾ قال الزجاج : أساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سوار ، وهى زينة تلبس فى الزند من اليد وهى من زينة الملوك. قيل : يحلى كل واحد منهم ثلاثة أساور : واحد من فضة ، وواحد من لؤلؤ، وواحد من ذهب ، وظاهر الآية أنها جميعها من ذهب ، ويمكن أن يكون قول القائل هذا جمعا بين الآيات لقوله سبحانه فى آية أخرى: ﴿ أساور من فضة ﴾ [الإنسان : ٢١] ولقوله فى آية أخرى : ﴿ ولؤلؤا ﴾ [الحج:٢٣] «ومن » فى قول : ﴿ **من أساور** ﴾ للابتداء ، وفى : ﴿**من ذهب** ﴾ للبيان . وحكى الفراء : « يحلون » بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام، يقال: حليت المرأة تحلى فهى حالية : إذا لبست الحلى ﴿ **ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق** ﴾ قال الكسائى: السندس : الرقيق ، واحده سندسة ، والإستبرق: ما ثخن ، وكذا قال المفسرون . وقيل : الإستبرق: هو الديباج كما قال الشاعر :

وإستبرق الديباج طورا لباسها

وقيل : هو المنسوج بالذهب . قال القتيبى : هو فارسى معرب . قال الجوهرى : وتصغيره أبيرق ، وخص الأخضر لأنه الموافق للبصر، ولكونه أحسن الألوان ﴿ **متكئين فيها على الأرائك**﴾ قال الزجاج : الأرائك جمع أريكة ، وهى السرر فى الحجال . قيل : هى أسرة من ذهب مكللة بالدر والياقوت ، وأصل اتكأ : اوتكأ ، وأصل متكئين : موتكئين ، والاتكاء : التحامل على الشىء ﴿ **نعم الثواب** ﴾ ذلك الذى أثابهم الله به ﴿ **وحسنت** ﴾ تلك الأرائك ﴿ **مرتفقا** ﴾ أى متكأ وقد تقدم قريبا .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿ **ملتحدا** ﴾ قال:

ملتجأ . وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الشعب عن سلمان قال : جاءت المؤلفة قلوبهم : عيينة بن بدر ، والأقرع بن حابس ، فقالوا : يا رسول الله ، لو جلست فى صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم ، يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ، جالسناك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله : ﴿ **واتل ما أوحى إليك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إنا أعتدنا للظالمين نارا** ﴾ زاد أبو الشيخ عن سلمان أن رسول الله ﷺ قام يلتمسهم حتى أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى فقال : « الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى ، معكم المحيا والممات » (١).

وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت على رسول الله ﷺ وهو فى بعض أبياته ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى** ﴾ فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله منهم ثائر الرأس وحاف الجلد وذو الثوب الخلق ، فلما رآهم جلس معهم وقال :« الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم» (٢) . وأخرج البزار عن أبى سعيد وأبى هريرة قالا : جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم » وفى الباب روايات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن نافع قال : أخبرنى عبد الله بن عمر فى هذه الآية ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم** ﴾ أنهم الذين يشهدون الصلوات الخمس . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده فى قوله: ﴿ **واصبر نفسك** ﴾ الآية قال : نزلت فى صلاة الصبح وصلاة العصر .

وأخرج ابن مردويه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾ قال : نزلت فى أمية بن خلف ، وذلك أنه دعا النبى ﷺ إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة ، فأنزل الله هذه الآية ، يعنى : من ختمنا على قلبه يعنى : التوحيد ﴿ **واتبع هواه** ﴾ يعنى : الشرك ﴿ **وكان أمره فرطا** ﴾ يعنى : فرطا فى أمر الله وجهالة بالله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن بريدة قال : دخل عيينة بن حصن على النبى ﷺ فى يوم حار ، وعنده سلمان عليه جبة صوف ، فصار منه ريح العرق فى الصوف ، فقال عيينة : يا محمد ، إذا نحن أتيناك فأخرج هذا وضرباءه من عندك لا يؤذينا ، فإذا خرجنا فأنت وهم أعلم ، فأنزل الله ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه** ﴾ الآية . وقد ثبت فى صحيح مسلم فى سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية ، وهى قوله تعالى : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى** ﴾ عن سعد بن أبى وقاص قال : كنا مع النبى ﷺ

---

(١) أبو نعيم فى الحلية ١/ ٢٤٥ .

(٢) ابن جرير ١٥/ ١٥٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٤ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح » .

ستة نفر ، فقال المشركون للنبى ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسمهما ، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه، فأنزل الله : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم** ﴾ الآية [١] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿ **وكان أمره فرطا** ﴾ قال: ضياعا .

وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة : ﴿ **وقل الحق** ﴾ قال : هو القرآن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ يقول : من شاء الله له الإيمان آمن ، ومن شاء له الكفركفر ، وهو قوله :﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ [التكوير : ٢٩] . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال فى الآية : هذا تهديد ووعيد . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله : ﴿ **أحاط بهم سرادقها** ﴾ قال : حائط من نار . وأخرج أحمد والترمذى وابن أبى الدنيا وابن جرير وأبو يعلى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « لسرادق النار أربعة جدر ، كثافة كل جدار منها مسيرة أربعين سنة » [٢] . وأخرج أحمد والبخارى فى تاريخه [٣] وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن يعلى بن أمية قال : قال رسول الله ﷺ : « إن البحر هو من جهنم » ، ثم تلا ﴿ **نارا أحاط بهم سرادقها** ﴾ [٤] . وأخرج أحمد والترمذى وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿**بماء كالمهل**﴾ قال: «كعكر الزيت، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه » [٥] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كالمهل** ﴾ قال : أسود كعكر الزيت . وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية قال : سئل ابن عباس عن المهل فقال : ماء

---

(١) مسلم فى فضائل الصحابة (٣٤١٣/ ٤٥ ، ٤٦) .

(٢) أحمد ٣/ ٢٩ والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨٤) وقال: «هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشدين بن سعد ، وفى رشدين مقال وقد تكلم فيه من قبل حفظه » وابن جرير ١٥/ ١٥٧ وأبو يعلى (١٣٨٩) وصححه الحاكم ٤/ ٦٠٠، ٦٠١ وسكت عنه الذهبى وإسناده ضعيف.

(٣) فى المخطوطة«البخارى» والصحيح ما أثبتناه من الدر المنثور ٤/ ٢٢٠كما ورد الحديث فى كشف الخفا ١/ ٢٨١ (٨٨٣) ولم يذكر البخارى ممن أخرج الحديث .

(٤) أحمد ٤/ ٢٢٣ وابن جرير ١٥/ ١٥٧ ، وصححه الحاكم ٤/ ٥٩٦ ووافقه الذهبى وقد تقدمت الرواية الصحيحة : « إن جهنم تحت الأرض السابعة » .

(٥) أحمد ٣/ ٧٠ ، ٧١ والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨٤) وفى التفسير (٣٣١٩) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين . ورشدين فيه مقال وقد تكلم فيه من قبل حفظه » وأبو يعلى (١٣٧٥) وابن جرير ١٥/ ١٧٥ وصححه ابن حبان (٧٤٣٠) والحاكم ٢/ ٥٠١ ووافقه الذهبى .

غليظ كدردى الزيت . وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود ؛ أنه سئل عن أهل النار ولونه لون السماء ، غير أن شراب أهل النار أشد حرا من هذا . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال :هل تدرون ما المهل ؟ المهل : سهل الزيت ،يعنى : آخره . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿وساءت مرتفقا﴾ قال : مجتمعا .

وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة ؛ أن النبى ﷺ قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» (١). وأخرج البيهقى عن أبى الخير مرثد بن عبد الله قال : فى الجنة شجرة تنبت السندس منه يكون ثياب أهل الجنة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن عكرمة قال : الإستبرق: الديباج الغليظ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الهيثم بن مالك الطائى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول منه ولا يمله ، يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه » . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأرائك : السرر فى جوف الحجال عليها الفرش منضود فى السماء فرسخ . وأخرج البيهقى فى البعث عنه قال : لا تكون أريكة حتى يكون السرير فى الحجلة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة أنه سئل عن الأرائك فقال : هى الحجال على السرر .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) ﴾ .

---

(١) البخارى فى اللباس (٥٩٥٣) ومسلم فى الطهارة (٢٥٠/ ٤٠) والنسائى ١/ ٩٣.

قوله : ﴿ **واضرب لهم مثلا رجلين** ﴾ هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا متصل بقوله : ﴿ **واصبر نفسك** ﴾ . وقد اختلف فى الرجلين هل هما مقدران أو محققان ؟ فقال بالأول بعض المفسرين . وقال بالآخر بعض آخر . واختلفوا فى تعيينهما، فقيل: هما أخوان من بنى إسرائيل . وقيل : هما أخوان مخزوميان من أهل مكة : أحدهما مؤمن ، والآخر كافر . وقيل : هما المذكوران فى سورة الصافات فو قوله : ﴿ قال قائل منهم إنى كان لى قرين ﴾ [الصافات : ٥١] وانتصاب ﴿ **مثلا** ﴾ و﴿ **رجلين** ﴾ على أنهما مفعولا ﴿ **اضرب** ﴾ ، قيل : والأول هو الثانى والثانى هو الأول ﴿ **جعلنا لأحدهما جنتين** ﴾ هو الكافر، و﴿ **من أعناب** ﴾ بيان لما فى الجنتين، أى من كروم متنوعة ﴿ **وحففناهما بنخل** ﴾ الحف: الإحاطة ، ومنه: ﴿ حافين من حول العرش ﴾ [الزمر : ٧٥] ويقال : حف القوم بفلان يحفون حفا ، أى أطافوا به ، فمعنى الآية : وجعلنا النخل مطيفا بالجنتين من جميع جوانبهما ﴿**وجعلنا بينهما زرعا** ﴾ أى بين الجنتين ، وهو وسطهما، ليكون كل واحد منهما جامعا للأقوات والفواكه .

ثم أخبر سبحانه عن الجنتين بأن كل واحدة منهما كانت تؤدى حملها وما فيها ، فقال : ﴿**كلتا الجنتين آتت أكلها**﴾ أخبر عن كلتا بآتت ، لأن لفظه مفرد ، فراعى جانب اللفظ . وقد ذهب البصريون إلى أن كلتا وكلا اسم مفرد غير مثنى . وقال الفراء : هو مثنى ، وهو مأخوذ من كل فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية . وقال سيبويه : ألف كلتا للتأنيث ، والتاء بدل من لام الفعل ، وهى واو ، والأصل : كلوا ، وقال أبو عمرو : التاء ملحقة ، وأكلهما : هو ثمرهما ، وفيه دلالة على أنه قد صار صالحا للأكل . وقرأ عبد الله بن مسعود : « كل الجنتين آتى أكله » ﴿ **ولم تظلم منه شيئا** ﴾ أى لم تنقص من أكلها شيئا ، يقال : ظلمه حقه ، أى نقصه، ووصف الجنتين بهذه الصفة للإشعار بأنهما على خلاف ما يعتاد فى سائر البساتين ؛ فإنها فى الغالب تكثر فى عام ، وتقل فى عام ﴿ **وفجرنا خلالهما نهرا** ﴾ أى أجرينا وشققنا وسط الجنتين نهرا ليسقيهما دائما من غير انقطاع ، وقرئ .. ﴿ **فجرنا** ﴾ بالتشديد للمبالغة ، وبالتخفيف على الأصل .

﴿ **وكان له** ﴾ أى لصاحب الجنتين ﴿ **ثمر** ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويعقوب وابن أبى إسحاق ﴿ **ثمر** ﴾ بفتح الثاء والميم ، وكذلك قرؤوا فى قوله : ﴿ **أحيط بثمره** ﴾ وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم فيهما ، وقرأ الباقون بضمهما جميعا فى الموضعين . قال الجوهرى : الثمرة واحدة الثمر ، وجمع الثمر ثمار مثل جبل وجبال . قال الفراء : وجمع الثمار: ثمر . مثل كتاب وكتب ، وجمع الثمر: أثمار . مثل : عنق وأعناق . وقيل : الثمر : جميع المال من الذهب والفضة ، والحيوان وغير ذلك . وقيل : هو الذهب والفضة خالصة ﴿ **فقال لصاحبه** ﴾ أى قال صاحب الجنتين الكافر لصاحبه المؤمن ﴿ **وهو يحاوره** ﴾ أى والكافر يحاور المؤمن ،

والمعنى: يراجعه الكلام ويجاوبه ، والمحاورة المراجعة ، والتحاور: التجاوب ﴿ **أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا** ﴾ النفر : الرهط ، وهو ما دون العشرة ، وأرادها هنا الأتباع والخدم والأولاد .

﴿ **ودخل جنته** ﴾ أى دخل الكافر جنة نفسه . قال المفسرون : أخذ بيد أخيه المسلم ، فأدخله جنته يطوف به فيها ، ويريه عجائبها ، وإفراد الجنة هنا يحتمل أن وجهه كونه لم يدخل أخاه إلا واحدة منهما ، أو لكونهما لما اتصلا كانا كواحدة ، أو لأنه أدخله فى واحدة ، ثم واحدة أو لعدم تعلق الغرض بذكرهما . وما أبعد ما قاله صاحب الكشاف [1] أنه وحد الجنة للدلالة على أنه لا نصيب له فى الجنة التى وعد المؤمنون ، وجملة : ﴿ **وهو ظالم لنفسه** ﴾ فى محل نصب على الحال أى وذلك الكافر ظالم لنفسه بكفره وعجبه ﴿ **قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا** ﴾ أى قال الكافر لفرط غفلته وطول أمله: ما أظن أن تفنى هذه الجنة التى تشاهدها .

﴿ **وما أظن الساعة قائمة** ﴾ أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته . قال الزجاج : أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة : ﴿ **ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منهما منقلبا** ﴾ اللام هى الموطئة للقسم ، والمعنى : أنه إن يرد إلى ربه فرضا وتقديرا كما زعم صاحبه ، واللام فى ﴿**لأجدن** ﴾ جواب القسم ، والشرط ، أى لأجدن يومئذ خيرا من هذه الجنة . فى مصاحف مكة والمدينة والشام: « خيرا منهما » وفى مصاحف أهل البصرة والكوفة ﴿ **خيرا منها** ﴾ على الإفراد، و﴿**منقلبا** ﴾ منتصب على التمييز ، أى مرجعا وعاقبة ، قال هذا قياسا للغائب على الحاضر ، وأنه لما كان غنيا فى الدنيا ، سيكون غنيا فى الأخرى ، اغترارا منه بما صار فيه من الغنى الذى هو استدراج له من الله .

﴿ **قال له صاحبه** ﴾ أى قال للكافر صاحبه المؤمن حال محاورته له منكرا عليه ما قاله : ﴿**أكفرت بالذى خلقك من تراب** ﴾ بقولك: ﴿ **ما أظن الساعة قائمة** ﴾ وقال : خلقك من تراب، أى جعل أصل خلقك من تراب حيث خلق أباك آدم منه ، وهو أصلك ، وأصل البشر فلكل فرد حظ من ذلك . وقيل : يحتمل أنه كان كافرا بالله فأنكر عليه ما هو عليه من الكفر ، ولم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة ﴿**ثم من نطفة** ﴾ وهى المادة القريبة ﴿ **ثم سواك رجلا** ﴾ أى صيرك إنسانا ذكرا ، وعدل أعضاءك وكملك ، وفى هذا تلويح بالدليل على البعث ، وأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة ، وانتصاب ﴿ **رجلا** ﴾ على الحال أو التمييز .

﴿ **لكنا هو الله ربى** ﴾ كذا قرأ الجمهور بإثبات الألف بعد لكن المشددة . وأصله : لكن أنا، حذفت الهمزة وألقيت حركتها على النون الساكنة قبلها فصار لكننا ، ثم استثقلوا اجتماع النونين فسكنت الأولى وأدغمت الثانية ، وضمير هو للشأن ، والجملة بعده خبره والمجموع خبر أنا ، والراجع ياء الضمير ، وتقدير الكلام : لكن أنا الشأن الله ربى . قال أهل العربية : إثبات ألف

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٢١ .

أنا فى الوصل ضعيف . قال النحاس : مذهب الكسائى والفراء والمازنى أن الأصل : لكن أنا ، وذكر نحو ما قدمنا . وروى عن الكسائى أن الأصل : لكن الله هو ربى أنا . قال الزجاج : إثبات الألف فى لكنا فى الإدراج جيد لأنها قد حذفت الألف من أنا ، فجاؤوا بها عوضا ، قال: وفى قراءة أبى : « لكن أنا هو الله ربى » وقرأ ابن عامر والمثنى عن نافع ، وورش عن يعقوب : ﴿ **لكنا** ﴾ فى حال الوصل والوقف معا بإثبات الألف ، ومثله قول الشاعر :

أنا سيف العشيرة فاعرفونى فإنى قد تـذريت السنامـا

ومنه قول الأعشى :

فكيف أنا وألحان القوافـى وبعد الشيب يكفى ذاك عارا

ولا خلاف فى إثباتها فى الوقف ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى وأبو العالية ، وروى عن الكسائى: « لكن هو الله ربى » ثم نفى عن نفسه الشرك بالله ، فقال: ﴿ **ولا أشرك بربى أحدا**﴾ وفيه إشارة إلى أن أخاه كان مشركا .

ثم أقبل عليه يلومه فقال : ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله** ﴾ لولا للتحضيض، أى هلا قلت عندما دخلتها هذا القول . قال الفراء والزجاج : « ما » فى موضع رفع على معنى الأمر ما شاء الله ، أى هلا قلت حين دخلتها : الأمر بمشيئة الله ، وما شاء الله كان ، ويجوز أن تكون « ما » مبتدأ والخبر مقدر ، أى ما شاء الله كائن ، ويجوز أن تكون « ما » شرطية والجواب محذوف ، أى أى شىء شاء الله كان ﴿ **لا قوة إلا بالله** ﴾ أى هلا قلت : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، تحضيضا له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله ، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ، وعلى الاعتراف بالعجز ، وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله ، لا بقوته وقدرته . قال الزجاج : لا يقوى أحد على ما فى يده من ملك ونعمة إلا بالله ، ولا يكون إلا ما شاء الله . ثم لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه على افتخاره بالمال والنفر فقال: ﴿ **إن ترنى أنا أقل منك مالا وولدا** ﴾ المفعول الأول :ياء الضمير ، وأنا : ضمير فصل ، وأقل : المفعول الثانى للرؤية إن كانت علمية ، وإن جعلت بصرية كان انتصاب أقل على الحال ، ويجوز أن يكون أنا تأكيد لياء الضمير ، وانتصاب ﴿**مالا**﴾ و﴿ **ولدا** ﴾ على التمييز .

﴿ **فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك** ﴾ هذا جواب الشرط ، أى إن ترنى أفقر منك ، فأنا أرجو أن يرزقنى الله سبحانه جنة خيرا من جنتك فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما ﴿ ويرسل عليها حسبانا ﴾ أى ويرسل على جنتك حسبانا . والحسبان مصدر ، بمعنى الحساب كالغفران ، أى مقدار قدره الله عليها ، ووقع فى حسابه سبحانه ، وهو الحكم بتخريبها. قال الزجاج : الحسبان من الحساب ، أى يرسل عليها عذاب الحساب ، وهو حساب ما كسبت يداك . وقال الأخفش : حسبانا : أى مرامى ﴿ من السماء ﴾ واحدها حسبانه ، وكذا قال أبوعبيدة والقتيبى .

وقال ابن الأعرابى : الحسبانة : السحابة ، والحسبانة : الوسادة ، والحسبانة : الصاعقة . وقال النضر بن شميل : الحسبان : سهام يرمى بها الرجل فى جوف قصبة تنزع فى قوس ، ثم يرمى بعشرين منها دفعة ، والمعنى : يرسل عليها مرامى من عذابه : إما برد ، وإما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب . ومنه قول زياد الكلابى :

أصاب الأرض حسبان

أى جراد . ﴿ **فتصبح صعيدا زلقا** ﴾ أى فتصبح جنة الكافر بعد إرسال الله سبحانه عليها حسبانا صعيدا، أى أرضا لا نبات بها وقد تقدم تحقيقه، ﴿ **زلقا** ﴾ أى تزلق فيها الأقدام لملاستها، يقال : مكان زلق بالتحريك ، أى دحض، وهو فى الأصل مصدر قولك : زلقت رجله تزلق زلقا وأزلقها غيره ، والمزلقة الموضع الذى لا يثبت عليه قدم ، وكذا الزلاقة ، وصف الصعيد بالمصدر مبالغة ، أو أريد به المفعول . وجملة : ﴿ **أو يصبح ماؤها غورا**﴾ معطوفة على الجملة التى قبلها : والغور : الغائر . وصف الماء بالمصدر مبالغة ، والمعنى : أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له، وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائما ، ويجىء الغور بمعنى الغروب ، ومنه قول أبى ذؤيب :

هل الدهر إلا ليلة ونهارها وإلا طلوع الشمس ثم غيارها

﴿ **فلن تستطيع له طلبا** ﴾ أى لن تستطيع طلب الماء الغائر فضلا عن وجوده ورده ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل . وقيل المعنى : فلن تستطيع طلب غيره عوضا عنه .

ثم أخبر سبحانه عن وقوع ما رجاه ذلك المؤمن وتوقعه من إهلاك جنة الكافر فقال : ﴿**وأحيط بثمره** ﴾ قد قدمنا اختلاف القراء فى هذا الحرف وتفسيره ، وأصل الإحاطة من إحاطة العدو بالشخص كما تقدم فى قوله : ﴿إلا أن يحاط بكم ﴾ [يوسف : ٦٦] وهى عبارة عن إهلاكه وإفنائه ، وهو معطوف على مقدر كأنه قيل : فوقع ما توقعه المؤمن وأحيط بثمره ﴿**فأصبح يقلب كفيه** ﴾ أى يضرب إحدى يديه على الأخرى ، وهو كناية عن الندم ، كأنه قيل : فأصبح يندم ﴿**على ما أنفق فيها** ﴾ أى فى عمارتها وإصلاحها من الأموال وقيل : المعنى : يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق ، لأن الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم فى يده مال ، وهو بعيد جدا ، وجملة : ﴿ **وهى خاوية على عروشها** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن تلك الجنة ساقطة على دعائمها التى تعمد بها الكروم أو ساقط بعض تلك الجنة على بعض ، مأخوذ من خوت النجوم تخوى : إذا سقطت ولم تمطر فى نوئها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ [النمل : ٥٢] قيل : وتخصيص ماله عروش بالذكر دون النخل والزرع لأنه الأصل ، وأيضا إهلاكها مغن عن ذكر إهلاك الباقى ، وجملة : ﴿ **ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا** ﴾ معطوفة على : ﴿ **يقلب كفيه** ﴾ ، أو حال من ضميره أى وهو يقول تمنى عند مشاهدته

لهلاك جنته بأنه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته من الهلاك ، أو كان هذا القول منه على حقيقته، لا لما فاته من الغرض الدنيوى ، بل لقصد التوبة من الشرك والندم على ما فرط منه .

﴿ **ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله** ﴾ : ﴿ **فئة** ﴾ اسم كان و﴿ **له** ﴾ خبرها ، و﴿**ينصرونه** ﴾ صفة لفئة أى فئة ناصرة ، ويجوز أن تكون، ﴿ **ينصرونه** ﴾ الخبر ، ورجح الأول سيبويه ، ورجح الثانى : المبرد ، واحتج بقوله : ﴿ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [الإخلاص : ٤] والمعنى : أنه لم تكن له فرقة وجماعة يلتجئ إليها وينتصر بها ، ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق ﴿ **وما كان** ﴾ فى نفسه ﴿**منتصرا**﴾ أى ممتنعا بقوته عن إهلاك الله لجنته ، وانتقامه منه.

﴿ **هنالك الولاية لله الحق** ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائى الحق بالرفع نعتا للولاية ، وقرأ أهل المدينة وأهل مكة وعاصم وحمزة الحق بالجر نعتا لله سبحانه . قال الزجاج : ويجوز النصب على المصدر والتوكيد كما تقول هذا لك حقا . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى الولاية بكسر الواو ، وقرأ الباقون بفتحها ، وهما لغتان بمعنى . والمعنى: هنالك ، أى فى ذلك المقام ، النصرة لله وحده لا يقدر عليها غيره وقيل : هو على التقديم والتأخير ، أى الولاية لله الحق هنالك ﴿ **هو خير ثوابا وخير عقبا** ﴾ أى هو سبحانه خير ثوابا لأوليائه فى الدنيا والآخرة ﴿**وخير عقبا**﴾ أى عاقبة ، قرأ الأعمش وعاصم وحمزة: ﴿ **عقبا** ﴾ بسكون القاف ، وقرأ الباقون بضمها، وهما بمعنى واحد أى هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به ، يقال : هذا عاقبة أمر فلان ، وعقباه ، أى أخراه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **جعلنا لأحدهما جنتين** ﴾ قال : الجنة : هى البستان ، فكان له بستان واحد وجدار واحد ، وكان بينهما نهر ، فلذلك كانا جنتين ، ولذلك سماه جنة من قبل الجدار الذى عليها . وأخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن أبى عمرو الشيبانى قال : نهر أبى قرطس نهر الجنتين . قال ابن أبى حاتم : وهو نهر مشهور بالرملة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **ولم تظلم منه شيئا** ﴾ قال : لم تنقص ، كل شجر الجنة أطعم. وأخرج ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عنه ﴿ **وكان له ثمر**﴾ يقول : مال . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ، قال : قرأها ابن عباس : « وكان له ثمر » بالضم ، وقال : هى أنواع المال . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿**وكان له ثمر** ﴾ قال : ذهب وفضة . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة ﴿وهو ظالم لنفسه ﴾ يقول : كفور بنعمة ربه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أسماء بنت عميس قالت : علمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن عند الكرب : « الله الله ربى لا أشرك به شيئا » . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن يحيى بن سليم الطائفى عمن ذكره قال : « طلب موسى من ربه حاجة فأبطأت عليه فقال : ما شاء الله، فإذا حاجته بين يديه، فقال: يارب، إنى أطلب حاجتى منذ كذا وكذا

أعطيتها الآن، فأوحى الله إليه : يا موسى، أما علمت أن قولك: ما شاء الله أنجح ما طلبت به الحوائج». وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته ، وقرأ : ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله** ﴾»[1] وفى إسناده عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس . قال أبو الفتح الأزدى: عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس لا يصح حديثه [2] . وأخرج ابن أبى حاتم من وجه آخر عن أنس نحوه موقوفا . وأخرج البيهقى فى الشعب عنه نحوه مرفوعا . وأخرج أحمد من حديث أبى هريرة قال : قال لى نبى الله ﷺ : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش ؟ » قلت : نعم ، قال : « أن تقول : لا قوة إلا بالله » [3] . وقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى موسى أن النبى ﷺ قال له : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » [4] . وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف فى فضل هذه الكلمة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فتصبح صعيدا زلقا** ﴾ قال : مثل الجرز. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **حسبانا من السماء**﴾ قال : عذابا ﴿ **فتصبح صعيدا زلقا** ﴾ أى قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شىء ﴿ **أو يصبح ماؤها غورا** ﴾ أى ذاهبا قد غار فى الأرض ﴿ **وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه** ﴾ قال : يصفق ﴿ **على ما أنفق فيها** ﴾ متلهفا على ما فاته .

﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)** ﴾ .

ثم ضرب سبحانه مثلا آخر لجبابرة قريش فقال : ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا** ﴾ أى اذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا فى حسنها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يركنوا إليها . وقد تقدم هذا المثل فى سورة يونس ، ثم بين سبحانه هذا المثل قال : ﴿ **كماء أنزلناه من السماء** ﴾ ويجوز أن يكون هذا هو المفعول الثانى لقوله : ﴿ **اضرب** ﴾ على جعله بمعنى صير ﴿ **فاختلط به نبات الأرض** ﴾ أى اختلط بالماء نبات الأرض حتى استوى . وقيل : المعنى : إن النبات اختلط بعضه

---

(١) البيهقى فى الشعب (٤٢٠٧) وإسناده ضعيف. وأورده ابن حجر فى المطالب العالية (٣٦٧٣) ونسبه لأبى يعلى.
(٢) ابن كثير ٤/ ٣٨٨ .
(٣) أحمد ٢/ ٤٦٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٥ ، ٥٣٥ ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٠٢ : « خرجه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح غير أبى بلج الكبير وهو ثقة » .
(٤) البخارى فى المغازى (٤٢٠٥) وفى الدعوات (٦٤٠٩) وفى القدر (٦٦١٠) ومسلم فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٤/ ٢٧٠٤، ٤٤، ٤٥) .

ببعض حين نزل عليه الماء ، لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر ، فتكون الباء فى ﴿ **به** ﴾ سببية ﴿ **فأصبح** ﴾ النبات ﴿ **هشيما** ﴾ الهشيم الكسير ، وهو من النبات ما تكسر بسبب انقطاع الماء عنه وتفتت ، ورجل هشيم : ضعيف البدن ، وتهشم عليه فلان : إذا تعطف ، واهتشم ما فى ضرع الناقة إذا احتلبه ، وهشم الثريد كسره وثرده ، ومنه قول ابن الزبعرى :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

﴿ **تذروه الرياح** ﴾ : تفرقه . قال أبو عبيدة وابن قتيبة : تذروه : تنسفه ، وقال ابن كيسان : تذهب به وتجىء ، والمعنى متقارب . وقرأ طلحة بن مصرف : « تذريه الريح » قال الكسائى : وفى قراءة عبد الله « تذريه » يقال : ذرته الريح تذروه ، وأذرته تذريه . وحكى الفراء أذريت الرجل عن فرسه ، أى قلبته ﴿ **وكان الله على كل شىء مقتدرا** ﴾ أى على كل شىء من الأشياء يحييه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شىء .

﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** ﴾ هذا رد على الرؤساء الذين كانوا يفتخرون بالمال والغنى والأبناء ، فأخبرهم سبحانه أن ذلك مما يتزين به فى الدنيا لا مما ينفع فى الآخرة ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [التغابن : ١٥] وقال : ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ [التغابن : ١٤] ولهذا عقب هذه الزينة الدنيوية بقوله : ﴿ **والباقيات الصالحات** ﴾ أى أعمال الخير ، وهى ما كان يفعله فقراء المسلمين من الطاعات ﴿ **خير عند ربك ثوابا** ﴾ أى أفضل من هذه الزينة بالمال والبنين ثوابا ، وأكثر عائدة ومنفعة لأهلها ﴿ **وخير أملا** ﴾ أى أفضل أملا ، يعنى : أن هذه الأعمال الصالحة لأهلها من الأمل أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين ، لأنهم ينالون بها فى الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء فى الدنيا ، وليس فى زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرة ، ولكن هذا التفضيل خرج مخرج قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا ﴾ [الفرقان : ٢٤] ، والظاهر أن الباقيات الصالحات كل عمل خير فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض ، ولا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعض آخر ، ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وبهذا تعرف أن تفسير الباقيات الصالحات فى الأحاديث بما سيأتى لا ينافى إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن على قال : ﴿ **المال والبنون** ﴾ حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **والباقيات الصالحات** ﴾ قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « استكثروا من الباقيات الصالحات » ، قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال :« التكبير والتهليل والتسبيح

والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله » [١] . وأخرج الطبرانى وابن شاهين وابن مردويه عن أبى الدرداء مرفوعا بلفظ : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هن الباقيات الصالحات » . وأخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى فى الصغير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا : «خذوا جنتكم » ، قيل : يا رسول الله ، من أى عدو قد حضر ؟ قال : « بل جنتكم من النار قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله، والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنبات، وهى الباقيات الصالحات » [٢]. وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن مردويه عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: « ألا وإن سبحان الله ،والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، الباقيات الصالحات » [٣]. وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أنس مرفوعا ، وزاد : «التكبير » وسماهن الباقيات الصالحات . وأخرج ابن مردويه نحوه من حديث أبى هريرة. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن مردويه من حديث عائشة مرفوعا نحوه ، وزادت : « ولا حول ولا قوة إلا بالله » . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه من حديث على مرفوعا نحوه . وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس مرفوعا فذكر نحوه دون الحوقلة . وأخرج الطبرانى عن سعد بن جنادة مرفوعا نحوه [٤] . وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن جرير عن ابن عمر من قوله نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس من قوله نحوه . وكل هذه الأحاديث مصرحة بأنها الباقيات الصالحات ، وأما ما ورد فى فضل هذه الكلمات من غير تقييد بكونها المرادة فى الآية فأحاديث كثيرة لا فائدة فى ذكرها هنا. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : كل شىء من طاعة الله ، فهو من الباقيات الصالحات .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا

---

(١) أحمد ٣/ ٧٥ وأبو يعلى (١٣٨٤) وابن جرير ١٥/ ١٦٧ وابن حبان (٨٣٧) وصححه الحاكم ١/ ٥١٢ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٩٠ : « رواه أحمد وأبو يعلى وإسنادهما حسن . وله شواهد » .

(٢) النسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٦٨٤) وابن جرير ١٥/ ١٦٦ والطبرانى فى الصغير ١/ ١٤٥ وصححه الحاكم ١/ ٥٤١ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٥٩٨) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٩٢ : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ورجاله فى الصغير رجال الصحيح غير داود بن بلال وهو ثقة » .

(٣) أحمد ٤/ ٢٦٨ وقال الهيثمى فى المجمع ٥/ ٢٥٠ : « قلت له : حديث فى الباقيات الصالحات غير هذا رواه ابن ماجة : رواه أحمد وفيه راو لم يسم وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٤) الطبرانى (٥٤٨٢ ، ٥٤٨٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٦٩ : « وفيه الحسين بن الحسن العوفى ، وهو ضعيف » .

(٤٨) ووُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ووَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ويَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) ورَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) ﴾ .

وقوله : ﴿ **ويوم نسير الجبال** ﴾ قرأ الحسن وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : « تسير » بمثناة فوقية مضمومة وفتح الياء التحتية على البناء للمفعول ، ورفع الجبال على النيابة عن الفاعل. وقرأ ابن محيصن ومجاهد: « تسير» بفتح التاء الفوقية والتخفيف على أن الجبال فاعل. وقرأ الباقون: ﴿ **نسير** ﴾ بالنون على أن الفاعل هو الله سبحانه والجبال منصوبة على المفعولية، ويناسب القراءة الأولى قوله تعالى : ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ [التكوير : ٣] ، ويناسب القراءة الثانية قوله تعالى : ﴿ وتسير الجبال سيرا ﴾ [الطور : ١٠] واختار القراءة الثالثة أبو عبيدة لأنها المناسبة لقوله : ﴿ **وحشرناهم** ﴾ قال بعض النحويين : التقدير : والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسير الجبال. وقيل: العامل فى الظرف فعل محذوف ، والتقدير : واذكر يوم نسير الجبال ، ومعنى تسيير الجبال: إزالتها من أماكنها وتسييرها كما تسير السحاب ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وهى تمر مر السحاب ﴾ [النمل : ٨٨]، ثم تعود إلى الأرض بعد أن جعلها الله كما قال : ﴿ وبست الجبال بسا. فكانت هباء منبثا ﴾ [الواقعة : ٥ ، ٦]. والخطاب فى قوله : ﴿ **وترى الأرض بارزة** ﴾ لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح للرؤية ، ومعنى بروزها : ظهورها وزوال ما يسترها من الجبال والشجر والبنيان . وقيل : المعنى ببروزها : بروز ما فيها من الكنوز والأموات كما قال سبحانه : ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ [الانشقاق : ٤] ، وقال : ﴿وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ [الزلزلة : ٢] فيكون المعنى : وترى الأرض بارزا ما فى جوفها ﴿ **وحشرناهم** ﴾ أى الخلائق ، ومعنى الحشر : الجمع ، أى جمعناهم إلى الموقف من كل مكان ﴿ **فلم نغادر منهم أحدا** ﴾ فلم نترك منهم أحدا ، يقال : غادره وأغدره إذا تركه ، قال عنترة :

غادرته متعفرا أوصاله والقوم بين مجرح ومجندل

أى تركته ، ومنه الغدر ؛ لأن الغادر ترك الوفاء للمغدور ، قالوا: وإنما سمى الغدير غديرا ؛ لأن الماء ذهب وتركه ، ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها ﴿ **وعرضوا على ربك صفا** ﴾

انتصاب ﴿ **صفا** ﴾ على الحال ، أى مصفوفين كل أمة وزمرة صف . وقيل : عرضوا صفا واحدا كما فى قوله: ﴿ ثم ائتوا صفا ﴾ [طه : ٦٤] أى جميعا . وقيل : قياما . وفى الآيـة تشبيه حالهـم بحـال الجيش الذى يعـرض على السلطان ﴿ **لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة** ﴾ هو على إضمار القول، أى قلنا لهم لقد جئتمونا ، والكاف فى ﴿ **كما خلقناكم** ﴾ نعت مصدر محذوف ، أى مجيئا كائنا كمجيئكم عندما خلقناكم أول مرة،أو كائنين كما خلقناكم أول مرة، أى حفاة عراة غرلا ، كما ورد ذلك فى الحديث [1] . قال الزجاج : أى بعثناكم وأعدناكم كما خلقناكم ؛ لأن قوله : ﴿**لقد جئتمونا** ﴾ معناه : بعثناكم ﴿ **بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا**﴾ هذا إضراب وانتقال من كلام إلى كلام للتقريع والتوبيخ ، وهو خطاب لمنكرى البعث ، أى زعمتم فى الدنيا أن لن تبعثوا ، وأن لن نجعل لكم موعدا نجازيكم بأعمالكم وننجز ما وعدناكم به من البعث والعذاب .

وجملة : ﴿ **ووضع الكتاب** ﴾ معطوفة على ﴿ **عرضوا** ﴾ ، والمراد بالكتاب : صحائف الأعمال ، وأفرده لكون التعريف فيه للجنس . والوضع إما حسى بأن يوضع صحيفة كل واحد فى يده : السعيد فى يمينه ، والشقى فى شماله ؛ أو فى الميزان . وإما عقلى ، أى أظهر عمل كل واحد من خير وشر بالحساب الكائن فى ذلك اليوم ﴿ **فترى المجرمين مشفقين مما فيه** ﴾ أى خائفين وجلين مما فى الكتاب الموضوع لما يتعقب ذلك من الافتضاح فى ذلك الجمع ، والمجازاة بالعذاب الأليم ﴿ **ويقولون يا ويلتنا** ﴾ يدعون على أنفسهم بالويل لوقوعهم فى الهلاك ، ومعنى هذا النداء قد تقدم تحقيقه فى المائدة ﴿ **مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾ أى أى شىء له لا يترك معصية صغيرة ولا معصية كبيرة إلا حواها وضبطها وأثبتها ﴿ **ووجدوا ما عملوا** ﴾ فى الدنيا من المعاصى الموجبة للعقوبة ، أو وجدوا جزاء ما عملوا ﴿ **حاضرا** ﴾ مكتوبا مثبتا ﴿ **ولا يظلم ربك أحدا** ﴾ أى لا يعاقب أحدا من عباده بغير ذنب ، ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذى يستحقه .

ثم إنه سبحانه عاد إلى الرد على أرباب الخيلاء من قريش ، فذكر قصة آدم واستكبار إبليس عليه فقال : ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ أى واذكر وقت قولنا لهم : اسجدوا سجود تحية وتكريم ، كما مر تحقيقه ﴿ **فسجدوا** ﴾ طاعة لأمر الله وامتثالا لطلبه السجود ﴿ **إلا إبليس** ﴾ فإنه أبى واستكبر ولم يسجد ، وجملة ﴿ **كان من الجن** ﴾ مستأنفة لبيان سـبب عصيانه وأنه كان من الجن ولـم يكن من الملائكة فلهذا عصى ، ومعنى : ﴿ **ففسق عن أمر ربه** ﴾ أنه خرج عن طاعة ربه . قال الفراء : العرب تقول : فسقت الرطبة عن قشرها لخروجها منه. قال النحاس : اختلف فى معنى ﴿ **ففسق عن أمر ربه** ﴾ على قولين : الأول مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى: أتاه الفسق لما أمر فعصى فكان سبب الفسق أمر ربه. كما تقول: أطعمه عن جوع . والقول

---

(١) روى البخارى ومسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون يوم القيامه حفاة عراة غرلا » الحديث. البخارى فى الرقاق (٦٥٢٧) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٥٩/٥٦ ، ٥٦ م) .

الآخر قول قطرب : أن المعنى على حذف المضاف ، أى فسق عن ترك أمره . ثم إنه سبحانه عجب من حال من أطاع إبليس فى الكفر والمعاصى وخالف أمر الله فقال : ﴿ **أفتتخذونه وذريته أولياء** ﴾ كأنه قال : أعقيب ما وجد منه من الإباء والفسق تتخذونه وتتخذون ذريته أى أولاده ، وقيل : أتباعه مجازا . ﴿ **أولياء من دونى** ﴾ فتطيعونهم بدل طاعتى وتستبدلونهم بى ، والحال أنهم ، أى إبليس وذريته ﴿ **لكم عدو** ﴾ أى أعداء . وأفرده لكونه اسم جنس ، أو لتشبيهه بالمصادر كما فى قوله : ﴿ فإنهم عدو لى ﴾ [الشعراء : ٧٧] ، وقوله : ﴿ هم العدو ﴾ [المنافقون : ٤] أى كيف تصنعون هذا الصنع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم ؟ بمن لم يكن لكم منه منفعة قط ؛ بل هو عدو لكم يترقب حصول ما يضركم فى كل وقت ﴿ **بئس للظالمين بدلا** ﴾ أى الواضعين للشىء فى غير موضعه المستبدلين بطاعة ربهم طاعة الشيطان ، فبئس ذلك البدل الذى استبدلوه بدلا عن الله سبحانه .

﴿ **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض** ﴾ قال أكثر المفسرين : إن الضمير للشركاء ، والمعنى: أنهم لو كانوا شركاء لى فى خلق السموات والأرض وفى خلق أنفسهم لكانوا شاهدين خلق ذلك مشاركين لى فيه ، ولم يشاهدوا ذلك ولا أشهدتهم إياه أنا فليسوا لى بشركاء . وهذا استدلال بانتفاء الملزوم المساوى على انتفاء اللازم . وقيل : الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين ، والمراد : أنهم ما كانوا شركاء لى فى تدبير العالم بدليل أنى ﴿ **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم** ﴾ : ما اعتضدت بهم بل هم كسائر الخلق ، وقيل : المعنى: أن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم فى الأزل ؛ لأنهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم ، فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند الله ، والأول من هذه الوجوه أولى لما يلزم فى الوجهين الآخرين من تفكيك الضميرين ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور ، وقرأ أبو جعفر : «ماأشهدناهم» وقرأ الباقون :﴿ **ما أشهدتهم** ﴾ ويؤيده ﴿ **وما كنت متخذ المضلين عضدا** ﴾ والعضد يستعمل كثيرا فى معنى العون، وذلك أن العضد قوام اليد ، ومنه قوله: ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ [القصص :٣٥] أى سنعينك ونقويك به ، ويقال : أعضدت بفلان : إذا استعنت به ، وذكر العضد على جهة المثل ، وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ ، والمعنى : ما استعنت على خلق السموات والأرض بهم ولا شاورتهم وماكنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعوانا ، ووحد العضد لموافقة الفواصل . وقرأ أبو جعفر الجحدرى : « وما كنت» بفتح التاء على أن الخطاب للنبى ﷺ أى وما كنت يا محمد متخذا لهم عضدا ولا صح لك ذلك، وقرأ الباقون بضم التاء، وفى عضد لغات ثمان أفصحها فتح العين وضم الضاد، وبها قرأ الجمهور . وقرأ الحسن : « عضد » بضم العين والضاد ، وقرأ عكرمة بضم العين وإسكان الضاد ، وقرأ الضحاك بكسر العين وفتح الضاد ، وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما ، ولغة تميم فتح العين وسكون الضاد .

ثم عاد سبحانه إلى ترهيبهم بأحوال القيامة فقال : ﴿ **ويوم يقول نادوا شركائى الذين**

زعمتم ﴾ قرأ حمزة ويحيى بن وثاب وعيسى بن عمر : « نقول » بالنون ، وقرأ الباقون بالياء التحتية ، أى اذكر يوم يقول الله عز وجل للكفار توبيخا لهم وتقريعا : نادوا شركائى الذين زعمتم أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم، وأضافهم سبحانه إلى نفسه جريا على ما يعتقده المشركون، تعالى الله عن ذلك ﴿ **فدعوهم** ﴾ أى فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء ﴿**فلم يستجيبوا لهم** ﴾ إذ ذاك ، أى لم يقع منهم مجرد الاستجابة لهم ، فضلا عن أن ينفعوهم أو يدفعوا عنهم ﴿ **وجعلنا بينهم موبقا** ﴾ أى جعلنا بين هؤلاء المشركين وبين من جعلوهم شركاء لله موبقا ، ذكر جماعة من المفسرين أنه اسم واد عميق فرق الله به تعالى بينهم ، وعلى هذا فهو اسم مكان . قال ابن الأعرابى : كل حاجز بين شيئين فهو موبق . وقال الفراء : الموبق:المهلك . والمعنى : جعلنا تواصلهم فى الدنيا مهلكا لهم فى الآخرة . يقال : وبق يوبق فهو وبق ، هكذا ذكره الفراء فى المصادر . وحكى الكسائى : وبق يبق وبوقا فهو وابق، والمراد بالمهلك على هذا هو : عذاب النار يشتركون فيه . والأول أولى ؛ لأن من جملة من زعموا أنهم شركاء الله : الملائكة وعزير والمسيح ، فالموبق: هو المكان الحائل بينهم. وقال أبو عبيدة: الموبق هنا : الموعد للهلاك، وقد ثبت فى اللغة : أوبقه بمعنى أهلكه ، ومنه قول زهير :

ومن يشترى حسن الثناء بماله يصن عرضه عن كل شنعاء موبق

ولكن المناسب لمعنى الآية هو المعنى الأول .

﴿ **ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها** ﴾ : ﴿ **المجرمون** ﴾ موضوع موضع الضمير للإشارة إلى زيادة الذم لهم بهذا الوصف المسجل عليهم به ، والظن هنا بمعنى اليقين. والمواقعة: المخالطة بالوقوع فيها . وقيل : إن الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون ذلك ظنا ﴿ **ولم يجدوا عنها مصرفا** ﴾ أى معدلا يعدلون إليه ، أو انصرافا ؛ لأن النار قد أحاطت بهم من كل جانب . قال الواحدى : المصرف : الموضع الذى ينصرف إليه . وقال القتيبى : أى معدلا ينصرفون إليه . وقيل : ملجأ يلجؤون إليه . والمعنى متقارب فى الجميع .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وترى الأرض بارزة** ﴾ قال : ليس عليها بناء ولا شجر . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا يغادر صغيرة ولا كبيرة** ﴾ قال : الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : الضحك. وزاد ابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم عنه قال: الصغيرة : التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين، والكبيرة : القهقهة بذلك . وأقول : صغيرة وكبيرة نكرتان فى سياق النفى ، فيدخل تحت ذلك كل ذنب يتصف بصغر ، وكل ذنب بتصف بالكبر ، فلا يبقى من الذنوب شىء إلا أحصاه الله وما كان من الذنوب ملتبسا بين كونه صغيرا أو كبيرا ، فذلك إنما هو بالنسبة إلى العباد لا بالنسبة إلى الله سبحانه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ فى العظمة ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس

قال : إن من الملائكة قبيلة يقال لهم الجن ، فكان إبليس منهم ، وكان يوسوس ما بين السماء والأرض ، فعصى فسخط الله عليه فمسخه الله شيطانا رجيما [١] . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **كان من الجن** ﴾ قال : كان خازن الجنان ، فسمى بالجان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : قال : إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازنا على الجنان . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : قاتل الله أقواما زعموا أن إبليس كان من الملائكة طرفة عين ، إنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض** ﴾ قال : يقول ماأشهدت الشياطين الذين اتخذتم معى هذا ﴿ **وما كنت متخذ المضلين عضدا** ﴾ قال : الشياطين عضدا ، قال : ولا اتخذتهم عضدا على شىء عضدونى عليه فأعانونى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجعلنا بينهم موبقا** ﴾ يقول : مهلكا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج أبو عبيد وهناد وابن المنذر عنه قال : واد فى جهنم . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن أنس فى الآية قال : واد فى جهنم من قيح ودم . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عمرو قال : هو واد عميق فى النار فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة : وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فظنوا أنهم مواقعوها** ﴾ قال : علموا .

﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩)** ﴾ .

---

(١) ابن جرير ١٥/ ١٧٠ والبيهقى فى الشعب (١٤٢) وقال : البيهقى رحمه الله : « فهذا إن ثبت دل على مفارقة هذه القبيلة غيرهم من الملائكة فى التسمية » . وإسناده حسن . وإبراهيم بن الحارث بن إسماعيل ثقة روى عنه البخارى ، ومترجم له فى سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٣ .

لما ذكر سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم وعشائرهم وأجابهم عن ذلك وضرب لهم الأمثال الواضحة ، حكى بعض أهوال الآخرة فقال : ﴿ **ولقد صرفنا** ﴾ أى كررنا ورددنا ﴿ **فى هذا القرآن للناس** ﴾ أى لأجلهم ولرعاية مصلحتهم ومنفعتهم ﴿ **من كل مثل** ﴾ من الأمثال التى من جملتها الأمثال المذكورة فى هذه السورة ، وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة بنى إسرائيل ، وحين لم يترك الكفار ما هم فيه من الجدال بالباطل ، ختم الآية بقوله : ﴿**وكان الإنسان أكثر شىء جدلا** ﴾ قال الزجاج : المراد بالإنسان : الكافر ، واستدل على أن المراد الكافر بقوله تعالى: ﴿**ويجادل الذين كفروا بالباطل**﴾ وقيل : المراد به فى الآية : النضر بن الحارث ، والظاهر العموم وأن هذا النوع أكثر الأشياء التى يتأتى منها الجدال جدلا ، ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث على، أن النبى ﷺ طرقه وفاطمة ليلا، فقال: «ألا تصليان ؟» فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شيئا ، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول : ﴿ **وكان الإنسان أكثر شىء جدلا** ﴾ (١) . وانتصاب ﴿ **جدلا** ﴾ على التمييز .

﴿ **وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين** ﴾ قد تقدم الكلام على مثل هذا فى سورة بنى إسرائيل ، وذكرنا أن « أن » الأولى فى محل نصب ، والثانية فى محل رفع . والهدى : القرآن ومحمد ﷺ ، والناس هنا هم : أهل مكة ، والمعنى على حذف مضاف : أى ما منع الناس من الإيمان والاستغفار إلا طلب إتيان سنة الأولين ، أو انتظار إتيان سنة الأولين ، وزاد الاستغفار فى هذه السورة لأنه قد ذكر هنا ما فرط منهم من الذنوب التى من جملتها جدالهم بالباطل ، وسنة الأولين هو أنهم إذا لم يؤمنوا عذبوا عذاب الاستئصال . قال الزجاج: سنتهم هو قولهم : ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ الآية: [الأنفال : ٣٢] ﴿ **أو يأتيهم العذاب** ﴾ أى عذاب الآخرة ﴿ **قبلا** ﴾ قال الفراء : إن قبلا جمع قبيل ، أى متفرقا يتلو بعضه بعضا . وقيل : عيانا . وقيل : فجأة . ويناسب ما قاله الفراء قراءة أبى جعفر وعاصم والأعمش وحمزة والكسائى ويحيى بن وثاب وخلف ﴿ **قبلا** ﴾ بضمتين فإنه جمع قبيل ، نحو سبيل وسبل ، والمراد : أصناف العذاب ؛ ويناسب التفسير الثانى ، أى عيانا، قراءة الباقين بكسر القاف وفتح الباء أى مقابلة ومعاينة . وقرئ بفتحتين على معنى : أو يأتيهم العذاب مستقبلا ، وانتصابه على الحال . فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم ، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معاينته .

﴿ **وما نرسل المرسلين** ﴾ من رسلنا إلى الأمم ﴿ **إلا** ﴾ حال كونهم ﴿ **مبشرين** ﴾ للمؤمنين ﴿ **ومنذرين** ﴾ للكافرين، فالاستثناء مفرغ من أعم العام ، وقد تقدم تفسير هذا ﴿ **ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق** ﴾ أى ليزيلوا بالجدال بالباطل الحق ويبطلوه وأصل

(١) البخارى فى التهجد (١١٢٧) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٧٥/٢٠٦) والنسائى فى التفسير (٣٢٥).

الدحض : الزلق . يقال : دحضت رجله ، أى زلقت تدحض دحضا ، ودحضت الشمس عن كبد السماء : زالت ، ودحضت حجته دحوضا : بطلت ، ومن ذلك قول طرفة :

أبا منذر رمت الوفاد فهبته وحدت كما حاد البعير عن الدحض

ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسل : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ [الشعراء : ١٥٤] ونحو ذلك : ﴿ **واتخذوا آياتى** ﴾ أى القرآن ﴿ **وما أنذروا** ﴾ به من الوعيد والتهديد ﴿**هزوا**﴾ أى لعبا وباطلا، وقد تقدم هذا فى البقرة .

﴿ **ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها** ﴾ أى لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما فتهاون بها وأعرض عن قبولها ، ولم يتدبرها حق التدبر ويتفكر فيها حق التفكر ﴿ **ونسى ما قدمت يداه** ﴾ من الكفر والمعاصى ، فلم يتب عنها . قيل: والنسيان هنا بمعنى الترك . وقيل : هو على حقيقته ﴿ **إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه** ﴾ أى أغطية . والأكنة : جمع كنان ، والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم . قال الزجاج : أخبر الله سبحانه أن هؤلاء طبع على قلوبهم ﴿ **وفى آذانهم وقرا** ﴾ أى وجعلنا فى آذانهم ثقلا يمنع من استماعه ، وقد تقدم تفسير هذا فى الأنعام ﴿ **وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا** ﴾ لأن الله قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم ومعاصيهم .

﴿ **وربك الغفور ذو الرحمة** ﴾ أى كثير المغفرة ، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شىء فلم يعاجلهم بالعقوبة ، ولهذا قال : ﴿ **لو يؤاخذهم بما كسبوا** ﴾ أى بسبب ما كسبوه من المعاصى التى من جملتها الكفر والمجادلة والإعراض ﴿ **لعجل لهم العذاب** ﴾ لاستحقاقهم لذلك ﴿ **بل** ﴾ جعل ﴿ **لهم موعد** ﴾ أى أجل مقدر لعذابهم . قيل : هو عذاب الآخرة . وقيل : يوم بدر ﴿ **لن يجدوا من دونه موئلا** ﴾ أى ملجأ يلجؤون إليه . وقال أبو عبيدة : منجا . وقيل : محيصا، ومنه قول الشاعر :

لا وا ألت نفسك خليتها للعامريين ولم تكلم

وقال الأعشى :

وقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر منى ثم ما يئل

أى ما ينجو . ﴿ **وتلك القرى** ﴾ أى قرى عاد وثمود وأمثالها ﴿ **أهلكناهم** ﴾ هذا خبر اسم الإشارة و﴿ **القرى** ﴾ صفته ، والكلام على حذف مضاف، أى أهل القرى أهلكناهم ﴿**لما ظلموا**﴾ أى وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصى ﴿ **وجعلنا لمهلكهم موعدا** ﴾ أى وقتا معينا ، وقرأ أبو بكر عن عاصم مهلكهم بفتح الميم واللام ، وهو مصدر هلك ، وأجاز الكسائى والفراء كسر اللام وفتح الميم ، وبذلك قرأ حفص ، وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللام . وقال الزجاج مهلك : اسم للزمان ، والتقدير : لوقت مهلكهم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ **إلا أن تأتيهم سنة الأولين** ﴾ قال : عقوبة الأولين . وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش في قوله : ﴿ **قبلا** ﴾ قال : جهارا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : فجأة . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ **ونسى ما قدمت يداه** ﴾ قال : نسي ما سلف من الذنوب الكثيرة . وأخرج أيضا عن ابن عباس : ﴿ **بما كسبوا** ﴾ يقول : بما عملوا . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى : ﴿ **بل لهم موعد** ﴾ قال: الموعد يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ **موئلا** ﴾ قال : ملجأ : وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ **موئلا** ﴾ قال : محرزا .

﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)** ﴾ .

الظرف في قوله : ﴿ **وإذ قال** ﴾ متعلق بفعل محذوف هو اذكر . قيل : ووجه ذكر هذه القصة في هذه السورة ، أن اليهود لما سألوا النبي ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وقالوا : إن أخبركم فهو نبي وإلا فلا . ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيها على أن النبي لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص والأخبار . وقد اتفق أهل العلم على أن موسى المذكور هو موسى ابن عمران النبي المرسل إلى فرعون ، وقالت فرقة لا التفات إلى ما تقوله منهم نوف البكالي : إنه ليس ابن عمران ، وإنما هو موسى بن ميشى بن يوسف بن يعقوب ، وكان نبيا قبل موسى ابن عمران ، وهذا باطل قد رده السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم كما في صحيح البخاري وغيره ، والمراد بفتاه هنا : هو يوشع بن نون . قال الواحدى : أجمعوا على أنه يوشع ابن نون ، وقد مضى ذكره في المائدة ، وفي آخر سورة يوسف ، ومن قال : إن موسى هو ابن ميشى قال : إن هذا الفتى لم يكن هو يوشع بن نون . قال الفراء : وإنما سمي فتى موسى لأنه كان ملازما له يأخذ عنه العلم ويخدمه ، ومعنى ﴿ **لا أبرح** ﴾ لا أزال ، ومنه قوله : ﴿ لن

obeikandi.com

نبرح عليه عاكفين ﴾ [طه : ٩١] ومنه قول الشاعر (١) :

وأبرح ما أدام الله قومى بحمد الله منتطقا مجيدا

وبرح إذا كان بمعنى زال فهو من الأفعال الناقصة ، وخبره هنا محذوف اعتمادا على دلالة ما بعده وهو ﴿ **حتى أبلغ مجمع البحرين** ﴾ قال الزجاج : لا أبرح بمعنى : لا أزال ، وقد حذف الخبر لدلالة حال السفر عليه ، ولأن قوله : ﴿ **حتى أبلغ** ﴾ غاية مضروبة ، فلابد لها من ذى غاية ، فالمعنى : لا أزال أسير إلى أن أبلغ ، ويجوز أن يراد : لا يبرح مسيرى حتى أبلغ وقيل : معنى ﴿ **لا أبرح** ﴾ : لا أفارقك حتى أبلغ مجمع البحرين . وقيل : يجوز أن يكون من برح التام، بمعنى زال يزال ، ومجمع البحرين: ملتقاهما . قيل : المراد بالبحرين: بحر فارس والروم . وقيل : بحر الأردن وبحر القلزم. وقيل : مجمع البحرين عند طنجة . وقيل : بإفريقية . وقالت طائفة : المراد بالبحرين موسى والخضر ، وهو من الضعف بمكان ، وقد حكى عن ابن عباس ولا يصح . ﴿ **أو أمضى حقبا** ﴾ أى أسير زمانا طويلا . قال الجوهرى : الحقب بالضم : ثمانون سنة . وقال النحاس : الذى يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة : زمان من الدهر مبهم غير محدود ، كما أن رهطا وقوما منهم غير محدود ، وجمعه أحقاب . وسبب هذه العزيمة على السير من موسى عليه السلام ما روى أنه سئل موسى من أعلم الناس ؟ فقال : أنا ، فأوحى الله إليه : إن أعلم منك عبد لى عند مجمع البحرين .

﴿ **فلما بلغا** ﴾ أى موسى وفتاه ﴿ **مجمع بينهما** ﴾ أى بين البحرين ، وأضيف مجمع إلى الظرف توسعا. وقيل : البين: بمعنى الافتراق ، أى البحران المفترقان يجتمعان هناك . وقيل : الضمير لموسى والخضر أى وصلا الموضع الذى فيه اجتماع شملهما ، ويكون البين على هذا بمعنى الوصل ؛ لأنه من الأضداد ، والأول أولى . ﴿ **نسيا حوتهما** ﴾ قال المفسرون : إنهما تزودا حوتا مملحا فى زنبيل ، وكانا يصيبان منه عند حاجتهما إلى الطعام ، وكان قد جعل الله فقدانه أمارة لهما على وجدان المطلوب . والمعنى : أنهما نسيا بفقد أمره . وقيل : الذى نسى إنما هو فتى موسى ؛ لأنه وكل أمر الحوت إليه ، وأمره أن يخبره إذا فقده ، فلما انتهيا إلى ساحل البحر وضع فتاه المكتل الذى فيه الحوت فأحياه الله ، فتحرك واضطرب فى المكتل ، ثم انسرب فى البحر ، ولهذا قال : ﴿ **فاتخذ سبيله فى البحر سربا** ﴾ انتصاب ﴿ **سربا** ﴾ على أنه المفعول الثانى لـ ﴿ **اتخذ** ﴾ أى اتخذ سبيلا سربا . والسرب : النفق الذى يكون فى الأرض للضب ونحوه من الحيوانات ، وذلك أن الله سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذى انسرب فيه الحوت فصار كالطاق ، فشبه مسلك الحوت فى البحر مع بقائه وانجياب الماء عنه بالسرب الذى هو الكوة المحفورة فى الأرض . قال الفراء : لما وقع فى الماء جمد مذهبه فى البحر فكان كالسرب ، فلما جاوزا ذلك المكان الذى كانت عنده الصخرة وذهب الحوت فيه انطلقا ،

---

(١) الشاعر : هو خداش بن زهير ، وكان يثنى فيه على قومه .

فأصابهما ما يصيب المسافر من النصب والكلال ، ولم يجدا النصب حتى جاوزا الموضع الذى فيه الخضر ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **فلما جاوزا** ﴾ أى : مجمع البحرين الذى جعل موعدا للملاقاة ﴿ **قال لفتاه آتنا غداءنا** ﴾ وهو ما يؤكل بالغداة ، وأراد موسى أن يأتيه بالحوت الذى حملاه معهما ﴿ **لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا** ﴾ أى تعبا وإعياء ، قال المفسرون : الإشارة بقوله : ﴿**سفرنا هذا** ﴾ إلى السفر الكائن منهما بعد مجاوزة المكان المذكور ، فإنهما لم يجدا النصب إلا فى ذلك دون ما قبله .

﴿ **قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة** ﴾ أى قال فتى موسى لموسى ، ومعنى الاستفهام : تعجيبه لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك الأمر مما لا ينسى ، لأنه قد شاهد أمرا عظيما من قدرة الله الباهرة ، ومفعول ﴿ **أرأيت** ﴾ محذوف لدلالة ما ذكره من النسيان عليه ، والتقدير : أرأيت ما دهانى ، أو نابنى فى ذلك الوقت والمكان . وتلك الصخرة كانت عند مجمع البحرين الذى هو الموعد ، وإنما ذكرها دون أن يذكر مجمع البحرين لكونها متضمنة لزيادة تعيين المكان ، لاحتمال أن يكون المجمع مكانا متسعا يتناول مكان الصخرة وغيره ، وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذى تقدم ذكره لبيان أن ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوت الذى جعلاه زادا لهما، وأمارة لوجدان مطلوبهما . ثم ذكر ما يجرى مجرى السبب فى وقوع ذلك النسيان فقال : ﴿ **وما أنسانيه إلا الشيطان** ﴾ بما يقع منه من الوسوسة ، و﴿ **أن أذكره** ﴾ بدل اشتمال من الضمير فى ﴿ **أنسانيه** ﴾ وفى مصحف عبد الله : وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان . ﴿ **واتخذ سبيله في البحر عجبا** ﴾ انتصاب ﴿ **عجبا** ﴾ على أنه المفعول الثانى كما مر فى ﴿ **سربا** ﴾ والظرف فى محل نصب على الحال ، يحتمل أن يكون هذا من كلام يوشع ، أخبر موسى أن الحوت اتخذ سبيله عجبا للناس ، وموضع التعجب : أن يحيا حوت قد مات وأكل شقه ، ثم يثب إلى البحر ويبقى أثر جريته فى الماء لا يمحو أثرها جريان ماء البحر ، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه لبيان طرف آخر من أمر الحوت ، فيكون ما بين الكلامين اعتراضا .

﴿ **قال ذلك ما كنا نبغ** ﴾ أى قال موسى لفتاه ذلك الذى ذكرت من فقد الحوت فى ذلك الموضع هو الذى كنا نطلبه ، فإن الرجل الذى نريده هو هنالك ﴿ **فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ أى رجعا على الطريق التى جاءا منها يقصان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما ،وانتصاب ﴿ **قصصا**﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف ، أو على الحال ، أى قاصين أو مقتصين ، والقصص فى اللغة اتباع الأثر . ﴿ **فوجدا عبدا من عبادنا** ﴾ هو الخضر فى قول جمهور المفسرين ، وعلى ذلك دلت الأحاديث الصحيحة ، وخالف فى ذلك من لا يعتد بقوله ، فقال : ليس هو الخضر بل عالم آخر . قيل : سمى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله . قيل : واسمه بليا بن ملكان ، ثم وصفه الله سبحانه فقال : ﴿ **آتيناه رحمة من عندنا** ﴾ قيل: الرحمة هى النبوة . وقيل : النعمة التى أنعم الله بها عليه ﴿ **وعلمناه من لدنا علما** ﴾ وهو ما علمه الله سبحانه من علم

الغيب الذى استأثر به ، وفى قوله : ﴿ **من لدنا** ﴾ تفخيم لشأن ذلك العلم ، وتعظيم له . قال الزجاج : وفيما فعل موسى وهو من جملة الأنبياء من طلب العلم ، والرحلة فى ذلك ما يدل على أنه لا ينبغى لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته ، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه .

ثم قص الله سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال : ﴿ **قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا** ﴾ فى هذا السؤال ملاطفة ومبالغة فى حسن الأدب ، لأنه استأذنه أن يكون تابعا له على أن يعلمه مما علمه الله من العلم . والرشد الوقوف على الخير وإصابة الصواب ، وانتصابه على أنه مفعول ثان لـ﴿ **تعلمنى** ﴾ أى علما ذا رشد أرشد به ، وقرئ : « رشدا » بفتحتين ، وهما لغتان كالبخل والبخل . وفى الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب . وليس فى ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل وقد يأخذ الفاضل عن المفضول إذا اختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان علم موسى علم الأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر علم بعض الغيب ومعرفة البواطن .

﴿ **قال إنك لن تستطيع معى صبرا** ﴾ أى قال الخضر لموسى : إنك لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمى، لأن الظواهر التى هى علمك لا توافق ذلك . ثم أكد ذلك مشيرا إلى علة عدم الاستطاعة ، فقال : ﴿ **وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا** ﴾ أى : كيف تصبر على علم ظاهره منكر ، وأنت لا تعلم ، ومثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر والإقرار عليه ، و﴿ **خبرا** ﴾ منتصب على التمييز ، أى لم تحط به خبرك:والخبر العلم بالشىء ، والخبير بالأمور هو : العالم بخفاياها ، وبما يحتاج إلى الاختبار منها .

﴿ **قال ستجدنى إن شاء الله صابرا** ﴾ أى قال موسى للخضر : ستجدنى صابرا معك ، ملتزما طاعتك ﴿**ولا أعصى لك أمرا** ﴾ فجملة : ﴿ **ولا أعصى** ﴾ معطوفة على ﴿ **صابرا** ﴾ ، فيكون التقييد بقوله : ﴿ **إن شاء الله** ﴾ شاملا للصبر ونفى المعصية . وقيل : إن التقييد بالمشيئة مختص بالصبر ، لأنه أمر مستقبل لا يدرى كيف يكون حاله فيه ، ونفى المعصية معزوم عليه فى الحال ، ويجاب عنه بأن الصبر ، ونفى المعصية متفقان فى كون كل واحد منهما معزوم عليه فى الحال ، وفى كون كل واحد منهما لا يدرى كيف حاله فيه فى المستقبل . ﴿ **قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء** ﴾ مما تشاهده من أفعالى المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذى بعثك الله به ﴿**حتى أحدث لك منه ذكرا** ﴾ أى حتى أكون أنا المبتدئ لك بذكره ، وبيان وجهه وما يؤول إليه، وهذه الجمل المعنونة بقال وقال مستأنفة ، لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة كل واحدة ينشأ السؤال عنها مما قبلها .

وقد أخرج الدارقطنى فى الأفراد ، وابن عساكر من طريق مقاتل بن سليمان عن الضحاك

عن ابن عباس قال : الخضر ابن آدم لصلبه ونسئ له فى أجله حتى يكذب الدجال . وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء» (١). وأخرجه ابن عساكر من حديث ابن عباس . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عساكر عن مجاهد إنما سمى الخضر لأنه إذا صلى اخضر ما حوله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين** ﴾ قال : حتى أنتهى . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **مجمع البحرين** ﴾ . قال : بحر فارس والروم ، وهما نحو المشرق والمغرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى بن كعب قال : ﴿ **مجمع البحرين** ﴾ إفريقية . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب قال : طنجة. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿ **أو أمضى حقبا**﴾ قال : سبعين خريفا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : دهرا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **نسيا حوتهما** ﴾ قال : كان مملوحا مشقوق البطن . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **فاتخذ سبيله فى البحر سربا** ﴾ قال : أثره يابس فى البحر كأنه فى حجر . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ قال : عودهما على بدئهما . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **آتيناه رحمة من عندنا** ﴾ قال : أعطيناه الهدى والنبوة .

واعلم أنها قد رويت فى قصة الخضر مع موسى المذكورة فى الكتاب العزيز أحاديث كثيرة، وأتمها وأكملها ما روى عن ابن عباس ولكنها اختلفت بعض الألفاظ ، وكلها مروية من طريق سعيد بن جبير عنه ، وبعضها فى الصحيحين وغيرهما ، وبعضها فى أحدهما ، وبعضها خارج عنهما . وقد رويت من طريق العوفى عنه كما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم ، ومن طريق هارون بن عنترة عن أبيه عنه عند ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والخطيب وابن عساكر ، فلنقتصر على الرواية التى هى أتم الروايات الثابتة فى الصحيحين ، ففى ذلك ما يغنى عن غيره، وهى : قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بنى إسرائيل ، قال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل، فسئل: أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه : إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يارب ، فكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتا فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتا فجعله فى مكتل . ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٤٠٢) والترمذى فى التفسير (٣١٥١) وقال : « حسن صحيح » .

مثل الطاق ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفتاه : ﴿ **آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا** ﴾ قال : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به، فقال له فتاه : ﴿ **أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا** ﴾ قال: فكان للحوت سربا ، ولموسى وفتاه عجبا ، فقال موسى : ﴿ **ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ قال سفيان : يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة لا يصيب ماؤها ميتا إلا عاش، قال: وكان الحوت قد أكل منه، فلما قطر عليه الماء عاش، قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ،فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام ؟ قال: أنا موسى قال: موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا، قال : ﴿ **إنك لن تستطيع معى صبرا** ﴾ يا موسى ، إنى على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من الله علمك الله لا أعلمه ؛ قال موسى: ﴿ **ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا** ﴾ فقال له الخضر : ﴿ **فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا** ﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول [1] ، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿**لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا** ﴾ ؟ قال : ﴿ **ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا** ﴾. قال: وقال رسول الله ﷺ : « فكانت الأولى من موسى نسيانا ». قال : « وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور الذى وقع على حرف السفينة من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله ، فقال موسى: ﴿ **أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا** ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى﴿ **قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه** ﴾ قال: مائل، فقال الخضر بيده هكذا فأقامه فقال موسى : قوم آتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا** ﴾ فقال رسول الله ﷺ :«وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما»[2] قال سعيد بن

---

(١) النول : الجعل والأجر .

(٢) البخارى فى العلم (٧٤ ، ٧٨ ، ١٢٢) وفى الإجارة (٢٢٦٧) وفى الشروط (٢٧٢٨) وفى بدء الخلق (٣٢٧٨) وفى الأنبياء: (٣٤٠٠ ، ٣٤٠١) وفى التفسير (٤٧٢٥ ــ ٤٧٢٧) وفى الأيمان والنذور (٦٦٧٢) وفى التوحيد (٧٤٧٨) ومسلم فى الفضائل (٢٣٨٠/ ١٧٠ ــ ١٧٢ ، ١٧٤) والترمذى فى التفسير (٣١٤٩) وقال : «حسن صحيح » . والنسائى فى التفسير (٣٢٧ ــ ٣٢٩) .

جبير : وكان ابن عباس يقرأ: « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » وكان يقرأ : « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » وبقية روايات سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى بن كعب هى موافقة لهذه الرواية فى المعنى وإن تفاوتت الألفاظ فى بعضها فلا فائدة فى الإطالة بذكرها ، وكذلك روايات غير سعيد عنه.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **فانطلقا** ﴾ أى موسى والخضر على ساحل البحر يطلبان السفينة ، فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فحملوهم ﴿ **حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها** ﴾ قيل : قلع لوحا من ألواحها . وقيل : لوحين مما يلى الماء . وقيل : خرق جدار السفينة ليعيبها ولا يتسارع الغرق إلى أهلها ﴿ **قال** ﴾ موسى : ﴿ **أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا** ﴾ أى لقد أتيت أمرا عظيما. يقال : أمر الأمر إذا كبر ، والإمر الاسم منه . وقال أبو عبيدة : الإمر: الداهية العظيمة ، وأنشد :

قد لقى الأقران منى نكرا داهية دهياء وأمرا إمرا

وقال القتيبى : الأمر العجب . وقال الأخفش : أمر أمره يأمر إذا اشتد ، والاسم الإمر . قرأ حمزة والكسائى «ليغرق أهلها » بالياء التحتية المفتوحة ، ورفع « أهلها » على أنه فاعل . وقرأ الباقون بالفوقية المضمومة ونصب ﴿ **أهلها** ﴾ على المفعولية ﴿ **قال** ﴾ أى الخضر ﴿ **ألم أقل**

إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ أذكره ما تقدم من قوله له سابقا : ﴿ إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ [الكهف : ٦٧] فقال له موسى : ﴿ **لا تؤاخذنى بما نسيت** ﴾ يحتمل أن تكون « ما » مصدرية ، أى لا تؤاخذنى بنسيانى ، أو موصولة أى لا تؤاخذنى بالذى نسيته ، وهو قول الخضر : ﴿ **فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا** ﴾ فالنسيان إما على حقيقته على تقدير أن موسى نسى ذلك ، أو بمعنى الترك على تقدير أنه لم ينس ما قاله له ، ولكنه ترك العمل به ﴿ **ولا ترهقنى من أمرى عسرا** ﴾ قال أبو زيد : أرهقته عسرا إذا كلفته ذلك : والمعنى : عاملنى باليسر لا بالعسر . وقرئ : « عسرا » بضمتين .

﴿ **فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله** ﴾ أى الخضر ، ولفظ الغلام يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصغير . قيل : كان الغلام يلعب مع الصبيان فاقتلع الخضر رأسه ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿**أقتلت نفسا زكية بغير نفس** ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وأويس بألف بعد الزاى وتخفيف الياء اسم فاعل. وقرأ الباقون بتشديد الياء من دون ألف، الزاكية: البريئة من الذنوب . قال أبو عمرو : الزاكية : التى لم تذنب ، والزكية : التى أذنبت ثم تابت . وقال الكسائى : الزاكية والزكية لغتان . وقال الفراء : الزاكية والزكية مثل : القاسية والقسية ، ومعنى ﴿ **بغير نفس** ﴾ : بغير قتل نفس محرمة حتى يكون قتل هذه قصاصا ﴿ **لقد جئت شيئا نكرا** ﴾ أى فظيعا منكرا لا يعرف فى الشرع . قيل : معناه : أنكر من الأمر الأول لكون القتل لا يمكن تداركه ، بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه . وقيل : النكر أقل من الإمر ، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة . قيل : استبعد موسى أن يقتل نفسا بغير نفس ، ولم يتأول للخضر بأنه يحل القتل بأسباب أخرى ﴿ **قال** ﴾ الخضر ﴿ **ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا** ﴾ زاد هنا لفظ « لك » ، لأن سبب العتاب أكثر ، وموجبه أقوى. وقيل : زاد لفظ «لك » لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه : لك أقول وإياك أعنى ﴿**قال** ﴾ موسى ﴿ **إن سألتك عن شىء بعدها** ﴾ أى بعد هذه المرة أو بعد هذه النفس المقتولة ﴿**فلا تصاحبنى** ﴾ أى لا تجعلنى صاحبا لك، نهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره ، ولذا قال : ﴿ **قد بلغت من لدنى عذرا** ﴾ يريد أنك قد أعذرت حيث خالفتك ثلاث مرات ، وهذا كلام نادم شديد الندامة ، اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف . قرأ الأعرج : « تصحبنى » بفتح التاء والباء وتشديد النون. وقرأ الجمهور: ﴿ **تصاحبنى** ﴾ وقرأ يعقوب: «تصحبنى» بضم التاء وكسر الحاء، ورواها سهل عن أبى عمرو . قال الكسائى : معناه : لا تتركنى أصحبك . وقرأ الجمهور : ﴿**لدنى** ﴾ بضم الدال إلا أن نافعا وعاصما خففا النون، وشددها الباقون . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « لدنى » بضم اللام وسكون الدال قال ابن مجاهد : وهى غلط . قال أبو على : هذا التغليط لعله من جهة الرواية ، فأما على قياس العربية فصحيحة . وقرأ الجمهور : ﴿**عذرا** ﴾ بسكون الذال . وقرأ عيسى بن عمر بضم الذال . وحكى الدانى أن أبيا روى عن النبى ﷺ بكسر الراء وياء بعدها بإضافة العذر إلى نفسه .

﴿ **فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية** ﴾ قيل : هى أيلة . وقيل : أنطاكية . وقيل : برقة . وقيل : قرية من قرى أذربيجان. وقيل : قرية من قرى الروم ﴿ **استطعما أهلها** ﴾ هذه الجملة فى محل الجر على أنها صفة لـ ﴿ **قرية** ﴾ ، ووضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التأكيد ، أو لكراهة اجتماع الضميرين فى هذه الكلمة لما فيه من الكلفة ، أو لزيادة التشنيع على أهل القرية بإظهارهم ﴿ **فأبوا أن يضيفوهما** ﴾ أى أبوا أن يعطوهما ما هو حق واجب عليهم من ضيافتهما، فمن استدل بهذه الآية على جواز السؤال وحل الكدية [1] فقد أخطأ خطأ بينا ، ومن ذلك قول بعض الأدباء الذين يسألون الناس :

فإن رددت فما فى الرد منقصة على قد رد موسى قبل والخضر

وقد ثبت فى السنة تحريم السؤال بما لا يمكن دفعه من الأحاديث الصحيحة الكثيرة ﴿ **فوجدا فيها** ﴾ أى فى القرية ﴿ **جدارا يريد أن ينقض** ﴾ إسناد الإرادة إلى الجدار مجاز . قال الزجاج : الجدار لا يريد إرادة حقيقية إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريدين القاصدين فوصف بالإرادة ، ومنه قول الراعى :

فى مهمه فلقت به هاماتها فلق الفؤوس إذا أردن نصولا

ومعنى الانقضاض : السقوط بسرعة ، يقال : انقض الحائط إذا وقع ، وانقض الطائر إذا هوى من طيرانه فسقط على شىء ، ومعنى ﴿ **فأقامه** ﴾ : فسواه ، لأنه وجده مائلا فرده كما كان . وقيل : نقضه وبناه . وقيل : أقامه بعمود ، وقد تقدم فى الحديث الصحيح أنه مسحه بيده ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجرا** ﴾ أى على إقامته وإصلاحه ، تحريضا من موسى للخضر على أخذ الأجر. قال الفراء: معناه: لو شئت لم تقمه حتى يقرونا فهو الأجر ، قرأ أبو عمرو ويعقوب وابن كثير وابن محيصن واليزيدى والحسن « لتخذت » يقال : تخذ فلان يتخذ تخذا مثل : اتخذ . وقرأ الباقون ﴿ **لاتخذت** ﴾. ﴿ **قال** ﴾ الخضر ﴿ **هذا فراق بينى وبينك** ﴾ على إضافة ﴿ **فراق** ﴾ إلى الظرف اتساعا ، أى هذا الكلام والإنكار منك على ترك الأجر هو المفرق بيننا . قال الزجاج : المعنى : هذا فراق بيننا ، أى هذا فراق اتصالنا ، وكرر «بين » تأكيدا ، ولما قال الخضر لموسى بهذا، أخذ فى بيان الوجه الذى فعل بسببه تلك الأفعال التى أنكرها موسى فقال: ﴿ **سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا** ﴾ والتأويل : رجوع الشىء إلى مآله .

ثم شرع فى البيان له فقال : ﴿ **أما السفينة** ﴾ يعنى : التى خرقها ﴿ **فكانت لمساكين** ﴾ لضعفاء لا يقدرون على دفع من أراد ظلمهم ﴿ **يعملون فى البحر** ﴾ ولم يكن لهم مال غير تلك

(١) الكدية : تكفف الناس وسؤالهم .

السفينة يكرونها من الذين يركبون البحر ويأخذون الأجرة ، وقد استدل الشافعى بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالا من المسكين ﴿ **فأردت أن أعيبها** ﴾ أى أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها ﴿ **وكان وراءهم ملك** ﴾ قال المفسرون : يعنى : أمامهم ، ووراء يكون بمعنى : أمام، وقد مر الكلام على هذا فى قوله: ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ [إبراهيم: ١٧] وقيل : أراد خلفهم ، وكان طريقهم فى الرجوع عليه ، وما كان عندهم خبر بأنه ﴿ **يأخذ كل سفينة غصبا** ﴾ أى كل سفينة صالحة لا معيبة ، وقد قرئ بزيادة « صالحة » ، روى ذلك عن أبى وابن عباس . وقرأ جماعة بتشديد السين من مساكين ، واختلف فى معناها ، فقيل : هم ملاحو السفينة ، وذلك أن المساك هو الذى يمسك السفينة ، والأظهر قراءة الجمهور بالتخفيف .

﴿ **وأما الغلام** ﴾ يعنى : الذى قتله ﴿ **فكان أبواه مؤمنين** ﴾ أى ولم يكن هو كذلك ﴿**فخشينا أن يرهقهما** ﴾ أى يرهق الغلام أبويه ، يقال : رهقه أى غشيه ، وأرهقه أغشاه . قال المفسرون : معناه خشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه فى دينه ، وهو الكفر ، و﴿ **طغيانا** ﴾ مفعول ﴿ **يرهقهما** ﴾ ﴿ **وكفرا** ﴾ معطوف عليه . وقيل : المعنى : فخشينا أن يرهق الوالدين طغيانا عليهما وكفرا لنعمتهما بعقوقه . قيل : ويجوز أن يكون ﴿ **فخشينا** ﴾ من كلام الله ، ويكون المعنى : كرهنا كراهة من خشى سوء عاقبة أمره فغيره ، وهذا ضعيف جدا ، فالكلام كلام الخضر . وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة ، فقيل : إنه كان بالغا وقد استحق ذلك بكفره . وقيل كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك ، ويكون معنى ﴿ **فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا** ﴾ : أن الخضر خاف على الأبوين أن يذبا عنه ويتعصبا له فيقعا فى المعصية ، وقد يؤدى ذلك إلى الكفر والارتداد . والحاصل أنه لا إشكال فى قتل الخضر له إذا كان بالغا كافرا أو قاطعا للطريق هذا فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية ، ويمكن أن يكون للخضر شريعة من عند الله سبحانه تسوغ له ذلك ، وأما إذا كان الغلام صبيا غير بالغ ، فقيل : إن الخضر علم بإعلام الله له أنه لو صار بالغا لكان كافرا يتسبب عن كفره إضلال أبويه وكفرهما، وهذا وإن كان ظاهر الشريعة الإسلامية يأباه ، فإن قتل من لا ذنب له ولا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحل فى الشريعة المحمدية ، ولكنه حل فى شريعة أخرى ، فلا إشكال . وقد ذهب الجمهور إلى أن الخضر كان نبيا ﴿ **فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه** ﴾ قرأ الجمهور بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال . وقرأ عاصم وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بسكون الباء وتخفيف الدال ، والمعنى : أردنا أن يرزقهما الله بدل هذا الولد ولدا خيرا منه ﴿ **زكاة** ﴾ أى دينا وصلاحا وطهارة من الذنوب ﴿ **وأقرب رحما** ﴾ قرأ ابن عباس وحمزة والكسائى وابن كثير وابن عامر : « رحما » بضم الحاء . وقرأ الباقون بسكونها ، ومعنى الرحم : الرحمة ، يقال : رحمه الله رحمة ورحمى ، والألف للتأنيث .

﴿ **وأما الجدار** ﴾ يعنى : الذى أصلحه ﴿ **فكان لغلامين يتيمين فى المدينة** ﴾ هى القرية

المذكورة سابقا ، وفيه جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة ﴿ **وكان تحته كنز لهما** ﴾ قيل : كان مالا جسيما كما يفيده اسم الكنز ، إذ هو المال المجموع . قال الزجاج : المعروف في اللغة أن الكنز إذا أفرد : فمعناه : المال المدفون ، فإذا لم يكن مالا قيل : كنز علم وكنز فهم . وقيل: لوح من ذهب . وقيل : صحف مكتوبة ﴿ **وكان أبوهما صالحا** ﴾ فكان صلاحه مقتضيا لرعاية ولديه وحفظ مالهما . قيل: هو الذي دفنه. وقيل: هو الأب السابع من عند الدافن له . وقيل : العاشر ﴿ **فأراد ربك** ﴾ أي مالك ومدبر أمرك ، وأضاف الرب إلى ضمير موسى تشريفا له ﴿ **أن يبلغا أشدهما** ﴾ أي كمالهما وتمام نموهما ﴿ **ويستخرجا كنزهما** ﴾ من ذلك الموضع الذي عليه الجدار، ولو انقض لخرج الكنز من تحته ﴿ **رحمة من ربك** ﴾ لهما، وهو مصدر في موضع الحال، أي مرحومين من الله سبحانه ﴿ **وما فعلته عن أمري** ﴾ أي عن اجتهادي ورأيي ، وهو تأكيد لما قبله ، فقد علم بقوله فأراد ربك أنه لم يفعله الخضر عن أمر نفسه ﴿ **ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا** ﴾ أي ذلك المذكور من تلك البيانات التي بينتها لك وأوضحت وجوهها تأويل ما ضاق صبرك عنه ولم تطق السكوت عليه ، ومعنى التأويل هنا : هو المآل الذي آلت إليه تلك الأمور ، وهو اتضاح ما كان مشتبها على موسى وظهور وجهه ، وحذف التاء من ﴿ **تسطع** ﴾ تخفيفا.

وقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس في قوله :﴿ **لقد جئت شيئا إمرا** ﴾ يقول: نكرا . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله:﴿ **إمرا** ﴾ فقال : عجبا . وأخرج ابن جرير عن أبي بن كعب في قوله :﴿ **لا تؤاخذني بما نسيت** ﴾ قال : لم ينس ، ولكنها من معاريض الكلام . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كان الخضر عبدا لا تراه الأعين ، إلا من أراد الله أن يريه إياه ، فلم يره من القوم إلا موسى ، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة وبين قتل الغلام . وأقول : ينبغي أن ينظر من أين له هذا ؟ فإن لم يكن مستنده إلا قوله : ولو رآه القوم إلخ ، فليس ذلك بموجب لما ذكره ، أما أولا : فإن من الجائز أن يفعل ذلك من غير أن يراه أهل السفينة وأهل الغلام ، لا لكونه لا تراه الأعين ، بل لكونه فعل ذلك من غير اطلاعهم . وأما ثانيا : فيمكن أن أهل السفينة وأهل الغلام قد عرفوه ، وعرفوا أنه لا يفعل ذلك إلا بأمر من الله كما يفعل الأنبياء ، فسلموا لأمر الله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله :﴿ **نفسا زكية** ﴾ قال : مسلمة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ، قال : لم تبلغ الخطايا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الحسن نحوه . وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ **شيئا نكرا** ﴾ قال : النكر أنكر من العجب . وأخرج أحمد عن عطاء قال: كتب نجدة الحروري إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان ، فكتب إليه : إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم . وزاد ابن أبي شيبة من طريق أخرى عنه : ولكنك لا تعلم ، قد نهى

obeikandl.com

رسول الله ﷺ عن قتلهم فاعتزلهم . وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند، وابن مردويه عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ قال : « الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا ، ولو أدرك لأرهق أبويه طغيانا وكفرا » (١) . وأخرج أبو داود والترمذى وعبد الله بن أحمد والبزار وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عن أبى ؛ أن النبى ﷺ قرأ : ﴿ **من لدنى عذرا** ﴾ مثقلة(٢) .

وأخرج ابن مردويه عن أبى أن النبى ﷺ قرأ : ﴿ **أن يضيفوهما** ﴾ مشددة . وأخرج ابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن مردويه عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قرأ : « فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض ، فهدمه ، ثم قعد يبنيه » . قلت : ورواية الصحيحين التى قدمناها أنه مسحه بيده أولى . وأخرج الفريابى فى معجمه ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى ؛ أن النبى ﷺ قرأ : « لو شئت لتخذت عليه أجرا » مخففة (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والترمذى والنسائى والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس عن أبى ابن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر لقص الله علينا من خبره ، ولكن قال :﴿ **إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى** ﴾ » (٤) . وأخرج سعيد ابن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يقرأ : « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا» (٥) . وأخرج ابن الأنبارى عن أبى بن كعب أنه قرأها كذلك. وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن أبى الزاهرية قال: كتب عثمان : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا » .

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : هى فى مصحف عبد الله : « فخاف ربك أن يرهقهما طغيانا وكفرا » . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **خيرا منه زكاة** ﴾ قال : دينا ﴿**وأقرب رحما**﴾ قال : مودة ، فأبدلا جارية ولدت نبيا . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وكان تحته كنز لهما** ﴾ قال : كان الكنز لمن قبلنا وحرم علينا ، وحرمت الغنيمة على من كان قبلنا وأحلت لنا ، فلا يعجبن الرجل ، فيقول : فما شأن الكنز ،

---

(١) مسلم فى القدر (٢٦٦١/ ٢٩) وأبو داود فى السنة (٤٧٠٥) والترمذى فى التفسير (٣١٥٠) وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٢) أبو داود فى الحروف والقراءات (٣٩٨٥) والترمذى فى القراءات (٢٩٣٣) وقال : « غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » والطبرانى (٥٤٣) .

(٣) صححه الحاكم ٢/ ٢٤٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) ابن أبى شيبة (٩٢٧٥) وأبو داود فى الحروف والقراءات (٣٩٨٤) والترمذى فى الدعاء (٣٣٨٥) وقال: «حسن غريب صحيح» والنسائى فى التفسير (٣٣٠) وصححه الحاكم ٢/ ٥٧٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى.

(٥) ابن جرير ١٦ / ٢٢ وصححه الحاكم ٢/ ٢٤٤ وقال الذهبى : « قلت : فيه هارون بن حاتم : واه » .

أحل لمن قبلنا وحرم علينا ؟ فإن الله يحل من أمره ما يشاء ويحرم ما يشاء ، وهى السنن والفرائض ، يحل لأمة ويحرم على أخرى . وأخرج البخارى فى تاريخه والترمذى وحسنه والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **وكان تحته كنز لهما** ﴾ قال : « ذهب وفضة» (١) . وأخرج الطبرانى عن أبى الدرداء فى قوله : ﴿ **وكان تحته كنز لهما** ﴾ قال : أحلت لهم الكنوز وحرمت عليهم الغنائم ، وأحلت لنا الغنائم وحرمت علينا الكنوز . وأخرج البزار وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى ذر رفعه قال : إن الكنز الذى ذكره الله فى كتابه لوح من ذهب مصمت فيه : عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب ، وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل، لا إله إلا الله محمد رسول الله . وفى نحو هذا روايات كثيرة لا تتعلق بذكرها فائدة .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وأحمد فى الزهد ، والحميدى فى مسنده وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وكان أبوهما صالحا** ﴾ قال : حفظا بصلاح أبيهما . وأخرج ابن مردويه، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يصلح بصلاح الرجل الصالح، ولده، وولد ولده، وأهل دويرته وأهل دويرات حوله ، فما يزالون فى حفظ الله تعالى ما دام فيهم » . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده ، وولد ولده ، ويحفظه فى دويرته ، والدويرات حوله ، فما يزالون فى ستر من الله وعافية . وأخرج ابن جرير من طريق الحسن بن عمارة عن أبيه قال : قيل لابن عباس : لم نسمع لفتى موسى بذكر وقد كان معه ؟ فقال ابن عباس : قال فيما يذكر من حديث الفتى إنه شرب من الماء فخلد ، فأخذه العالم فطابق به سفينة ثم أرسله فى البحر ، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة ، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه قال ابن كثير : إسناده ضعيف ، الحسن متروك وأبوه غير معروف (٢) .

﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ** ﴾

(١) البخارى فى تاريخه (٣٣٥٧) والترمذى فى التفسير (٣١٥٢) وقال : « حديث غريب » . وصححه الحاكم ٢/ ٣٦٩ وقال الذهبى : «قلت بل يزيد بن يوسف متروك وإن كان حديثه أشبه بمسمى الكنز » . وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٧ بعد أن أورد الرواية الموقوفة : « وقد روى الترمذى حديثا غير هذا . رواه الطبرانى وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة وهو متروك » .

(٢) ابن كثير ٤/ ٤١٧ .

صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ﴾ .

لما أجاب سبحانه عن سؤالين من سؤالات اليهود ، وانتهى الكلام إلى حيث انتهى ، شرع سبحانه فى السؤال الثالث والجواب عنه ، فالمراد بالسائلين هنا هم اليهود .

واختلفوا فى ذى القرنين اختلافا كثيرا فقيل : هو الإسكندر بن فيلقوس الذى ملك الدنيا بأسرها اليونانى بانى الإسكندرية . وقال ابن إسحاق : هو رجل من أهل مصر ، اسمه مرزبان ابن مرزبة اليونانى ، من ولد يونان بن يافث بن نوح . وقيل : هو ملك اسمه هرمس . وقيل: ملك اسمه هردبس . وقيل : شاب من الروم . وقيل : كان نبيا . وقيل : كان عبدا صالحا . وقيل : اسمه عبد الله بن الضحاك . وقيل : مصعب بن عبد الله ، من أولاد كهلان بن سبأ . وحكى القرطبى[1] عن السهيلى أنه قال : إن الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان : أحدهما : كان على عهد إبراهيم عليه السلام ، والآخر : كان قريبا من عيسى عليه السلام . وقيل : هو أبو كرب الحميرى . وقيل : هو ملك من الملائكة ، ورجح الرازى القول الأول ، قال : لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التى نطق بها التنزيل إنما هو الإسكندر اليونانى كما تشهد به كتب التاريخ ، قال : فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر ، قال : وفيه إشكال لأنه كان تلميذا لأرسطاطاليس الحكيم ، وكان على مذهبه ، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق ، وذلك مما لا سبيل إليه. قال النيسابورى : قلت: ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلا فلعله أخذ منهم ما صفا وترك ما كدر ، والله أعلم .

ورجح ابن كثير [2] ما ذكره السهيلى أنهما اثنان كما قدمنا ذلك ، وبين أن الأول : طاف بالبيت مع إبراهيم أول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر . وأما الثانى : فهو الإسكندر المقدونى اليونانى ، وكان وزيره الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس ، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة . فأما الأول المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل ، هذا معنى ما ذكره ابن كثير فى تفسيره راويا له عن الأزرقى وغيره ؛ ثم قال : وقد ذكرنا طرفا صالحا فى أخباره فى كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية. وحكى أبو السعود فى تفسيره عن ابن كثير أنه قال : وإنما بينا هذا ، يعنى أنهما اثنان ، لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد ، وأن المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر ، فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير ، كيف لا ، والأول : كان عبدا صالحا مؤسنا ، وملكا عادلا ، ووزيره الخضر ، وقد قيل : إنه كان نبيا . وأما الثانى : فقد كان كافرا ، ووزيره

---

(١) القرطبى ٦/ ٨٥ ، ٤ .

(٢) ابن كثير ٤/ ٤١٨ .

أرسطاطاليس الفيلسوف ، وكان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة ، فأين هذا من ذاك ؟ انتهى [١] . قلت : لعله ذكر هذا فى الكتاب الذى ذكره سابقا، وسماه بالبداية والنهاية ولم يقف عليه، والذى يستفاد من كتب التاريخ هو : أنهما اثنان ، كما ذكره السهيلى والأزرقى وابن كثير وغيرهم لا كما ذكره الرازى وادعى أنه الذى تشهد به كتب التواريخ ، وقد وقع الخلاف هل هو نبى أم لا ؟ وسيأتى ما يستفاد منه المطلوب آخر هذا البحث إن شاء الله .

وأما السبب الذى لأجله سمى ذا القرنين ، فقال الزجاج والأزهرى: إنما سمى ذا القرنين ، لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها ، وقرن الشمس من مغربها . وقيل : إنه كان له ضفيرتان من شعر ، والضفائر تسمى قرونا ، ومنه قول الشاعر [٢] :

فلثمت فاها آخذا بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

والحشرج : ماء من مياه العرب . وقيل : إنه رأى فى أول ملكه كأنه قابض على قرنى الشمس فسمى بذلك . وقيل : كان له قرنان تحت عمامته . وقيل : إنه دعا إلى الله فشجه قومه على قرنه ، ثم دعا إلى الله فشجوه على قرنه الآخر . وقيل : إنما سمى بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه . وقيل : لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس وهو حى . وقيل : لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعا . وقيل : لأنه أعطى علم الظاهر والباطن . وقيل : لأنه دخل النور والظلمة . وقيل : لأنه ملك فارس والروم . وقيل : لأنه ملك الروم والترك . وقيل : لأنه كان لتاجه قرنان . قوله : ﴿ **قل سأتلوا عليكم منه ذكرا** ﴾ أى سأتلو عليكم أيها السائلون من ذى القرنين خبرا ، وذلك بطريق الوحى المتلو .

ثم شرع سبحانه فى بيان ما أمر به رسوله أن يقوله لهم من أنه سيتلو عليهم منه ذكرا فقال: ﴿ **إنا مكنا له فى الأرض** ﴾ أى أقدرناه بما مهدنا له من الأسباب ، فجعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فيها ، وسهل عليه المسير فى مواضعها ، وذلل له طرقها حتى تمكن منها أين شاء وكيف شاء ؟ ومن جملة تمكينه فيها أنه جعل له الليل والنهار سواء فى الإضاءة ﴿ **وآتيناه من كل شىء** ﴾ مما يتعلق بمطلوبه ﴿ **سببا** ﴾ أى طريقا يتوصل بها إلى ما يريده ﴿ **فأتبع سببا** ﴾ من تلك الأسباب . قال المفسرون : والمعنى : طريقا تؤديه إلى مغرب الشمس . قال الزجاج : فأتبع سببا من الأسباب التى أوتى، وذلك أنه أوتى من كل شىء سببا فأتبع من تلك الأسباب التى أوتى سببا فى المسير إلى المغرب، وقيل: أتبع من كل شىء علما يتسبب به إلى ما يريد . وقيل : بلاغا إلى حيث أراد . وقيل : من كل شىء يحتاج إليه الخلق . وقيل : من كل شىء تستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء . وأصل السبب : الحبل ، فاستعين لكل ما يتوصل به إلى شىء . قرأ ابن عامر وأهل الكوفة وعاصم وحمزة والكسائى :« وأتبع » بقطع الهمزة ، وقرأ أهل المدينة

---

(١) أبو السعود فى تفسيره ٣/ ٤٠٠ .

(٢) الشاعر : هو عمر بن أبى ربيعة .

وأهل مكة وأبو عمرو بوصلها . قال الأخفش : تبعته وأتبعته بمعنى، مثل : ردفته وأردفته، ومنه قوله : ﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ [الصافات : ١٠] قال النحاس: واختار أبو عبيدة قراءة أهل الكوفة، قال : لأنها من السير. وحكى هو والأصمعى أنه يقال : تبعته وأتبعته إذا سار ولم يلحقه ، واتبعه إذا لحقه. قال أبو عبيدة: ومثله : ﴿ فأتبعوهم مشرقين﴾ [الشعراء : ٦٠] . قال النحاس : وهذا من الفرق وإن كان الأصمعى قد حكاه فلا يقبل إلا بعلم أو دليل،وقوله عز وجل:﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ ليس فى الحديث أنهم لحقوهم، وإنما الحديث لما خرج موسى وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه فى البحر انطبق عليهم البحر . والحق فى هذا أن تبع واتبع وأتبع لغات بمعنى واحد ، وهو بمعنى : السير .

﴿ **حتى إذا بلغ مغرب الشمس** ﴾ أى نهاية الأرض من جهة المغرب ، لأن من وراء هذه النهاية البحر المحيط، وهو لا يمكن المضى فيه ﴿ **وجدها تغرب فى عين حمئة** ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى: « حامية » أى حارة . وقرأ الباقون :﴿ **حمئة** ﴾ أى كثيرة الحمأة ، وهى الطينة السوداء ، تقول : حمئت البئر حمأ بالتسكين: إذا نزعت حمأتها ، وحمأت البئر حمأتها بالتحريك : كثرت حمأتها ، ويجوز أن تكون حامية من الحمأة ، فخففت الهمزة وقلبت ياء ، وقد يجمع بين القراءتين فيقال : كانت حارة وذات حمأة . قيل : ولعل ذا القرنين لما بلغ ساحل البحر المحيط رآها كذلك فى نظره ، ولا يبعد أن يقال : لا مانع من أن يمكنه الله من عبور البحر المحيط حتى يصل إلى تلك العين التى تغرب فيها الشمس، وما المانع من هذا بعد أن حكى الله عنه أنه بلغ مغرب الشمس، ومكن له فى الأرض والبحر من جملتها ، ومجرد الاستبعاد لا يوجب حمل القرآن على خلاف ظاهره ﴿ **ووجد عندها قوما** ﴾ الضمير فى عندها إما للعين أو للشمس . قيل : هم قوم لباسهم جلود الوحش ، وكانوا كفارا ، فخيره الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم ، فقال : ﴿ **إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا** ﴾ أى إما أن تعذبهم بالقتل من أول الأمر ، وإما أن تتخذ فيهم أمرا ذا حسن أو أمرا حسنا مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر ، والمراد : دعوتهم إلى الحق وتعليمهم الشرائع .

﴿ **قال** ﴾ ذو القرنين مختارا للدعوة التى هى الشق الأخير من الترديد ﴿ **أما من ظلم** ﴾ نفسه بالإصرار على الشرك ولم يقبل دعوتى ﴿ **فسوف نعذبه** ﴾ بالقتل فى الدنيا ﴿ **ثم يرد إلى ربه** ﴾ فى الآخرة ﴿ **فيعذبه** ﴾ فيها ﴿ **عذابا نكرا** ﴾ أى منكرا فظيعا . قال الزجاج : خيره الله بين الأمرين . قال النحاس : ورد على بن سليمان قوله لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبى فيخاطب بهذا ، فكيف يقول لربه عز وجل: ﴿ **ثم يرد إلى ربه** ﴾ وكيف يقول ﴿ **فسوف نعذبه**﴾ فيخاطبه بالنون، قال: والتقدير: قلنا: يا محمد ، قالوا : يا ذا القرنين . قال النحاس : وهذا الذى ذكره لا يلزم لجواز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبى فى وقته ، وكأن ذا القرنين خاطب أولئك القوم فلا يلزم ما ذكره . ويمكن أن يكون مخاطبا للنبى الذى خاطبه الله على لسانه، أو خاطب قومه الذين وصل بهم إلى ذلك الموضع . قال ثعلب : إن فى قوله : ﴿ **إما أن تعذب**

﴿ **وإما أن تتخذ** ﴾ فى موضع نصب، ولو رفعت لكان صوابا بمعنى فأما هو كقول الشاعر:

فسيروا فإما حاجة تقضيانها وإما مقيل صالح وصديق

﴿ **وأما من آمن** ﴾ بالله وصدق دعوتى ﴿ **وعمل** ﴾ عملا ﴿ **صالحا** ﴾ مما يقتضيه الإيمان ﴿**فله جزاء الحسنى** ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم وابن كثير وابن عامر: « فله جزاء » بالرفع على الابتداء ، أى جزاء الخصلة الحسنى عند الله، أو الفعلة الحسنى وهى الجنة قاله الفراء. وإضافة الجزاء إلى الحسنى التى هى الجنة كإضافة حق اليقين ودار الآخرة ، ويجوز أن يكون هذا الجزاء من ذى القرنين ، أى أعطيه وأتفضل عليه ، وقرأ سائر الكوفيين : ﴿ **فله جزاء الحسنى** ﴾ بنصب ﴿**جزاء**﴾ وتنوينه . قال الفراء : انتصابه على التمييز . وقال الزجاج : هو مصدر فى موضع الحال ، أى مجزيا بها جزاء ، وقرأ ابن عباس ومسروق بنصب « جزاء » من غير تنوين . قال أبو حاتم : هى على حذف التنوين لالتقاء الساكنين . قال النحاس : وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين . وقرئ برفع: « جزاء » منونا على أنه مبتدأ، ﴿ **الحسنى** ﴾ بدل منه والخبر الجار والمجرور ﴿ **وسنقول له من أمرنا يسرا**﴾ أى مما نأمر به قولا ذا يسر ليس بالصعب الشاق، أو أطلق عليه المصدر مبالغة .

﴿ **ثم أتبع سببا** ﴾ أى طريقا آخر غير الطريق الأولى وهى التى رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق ﴿**حتى إذا بلغ مطلع الشمس** ﴾ أى الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولا من معمور الأرض ، مكان طلوع لعدم المانع شرعا ولا عقلا من وصوله إليه كما أوضحناه فيما سبق ﴿**وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا**﴾ يسترهم، لا من البيوت ولا من اللباس، بل هم حفاة عراة لا يأوون إلى شىء من العمارة . قيل : لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقر عليها البناء ﴿**كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا**﴾ أى كذلك أمر ذى القرنين أتبع هذه الأسباب حتى بلغ، وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به، وقيل: المعنى: لم نجعل لهم سترا مثل ذلك الستر الذى جعلنا لكم من الأبنية والثياب. وقيل: المعنى : كذلك بلغ مطلع الشمس مثل ما بلغ من مغربها. وقيل: المعنى: كذلك تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم، فقضى فى هؤلاء كما قضى فى أولئك من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين ، ويكون تأويل الإحاطة بما لديه فى هذه الوجوه على ما يناسب ذلك كما قلنا فى الوجه الأول .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : قالت اليهود للنبى ﷺ : يا محمد ، إنك إنما تذكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبيين ، إنك سمعت ذكرهم منا ، فأخبرنا عن نبى لم يذكره الله فى التوراة إلا فى مكان واحد، قال : « ومن هو ؟ » قالوا: ذو القرنين ، قال : « ما بلغنى عنه شىء » ، فخرجوا فرحين قد غلبوا فى أنفسهم ، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات : ﴿ **ويسألونك عن ذى القرنين** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أدرى

أتبع كان نبيا أم لا ؟ وما أدرى أذو القرنين كان نبيا أم لا ؟ وما أدرى الحدود كفارات لأهلها أم لا»[١]. وأخرج ابن مردويه عن سالم بن أبى الجعد قال : سئل على عن ذى القرنين أنبى هو ؟ قال : سمعت نبيكم ﷺ يقول : « هو عبد ناصح الله فنصحه » . وأخرج ابن عبد الحكم فى فتوح مصر ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن أبى عاصم فى السنة ، وابن مردويه من طريق أبى الطفيل ؛ أن ابن الكواء سأل على بن أبى طالب عن ذى القرنين : أنبيا كان أم ملكا ؟ قال : لم يكن نبيا ولا ملكا ، ولكن كان عبدا صالحا أحب الله فأحبه الله ، ونصح لله فنصحه الله ، بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه فمات، ثم أحياه الله لجهادهم ، ثم بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات ، فأحياه الله لجهادهم ، فلذلك سمى ذو القرنين ، وإن فيكم مثله . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمرو قال : ذو القرنين نبى . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأخرص بن حكيم عن أبيه ؛ أن النبى ﷺ سئل عن ذى القرنين فقال:« هو ملك مسح الأرض بالأسباب» . وأخرج ابن عبد الحكم فى فتوح مصر، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، عن خالد بن معدان الكلاعى مرفوعا مثله. وأخرج ابن عبد الحكم وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى كتاب الأضداد ، وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب أنه سمع رجلا ينادى بمنى : يا ذا القرنين ، فقال عمر : ها أنتم قد سمعتم بأسماء الأنبياء فما بالكم وأسماء الملائكة ؟ وفى الباب غير ما ذكرناه مما يغنى عنه ما قد أوردناه .

وقد أخرج ابن عبد الحكم فى فتوح مصر ، وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الدلائل عن عقبة بن عامر الجهنى حديثا يتضمن أن نفرا من اليهود سألوا النبى ﷺ عن ذى القرنين ، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء ، وكان فيما أخبرهم به :« أنه كان شابا من الروم ، وأنه بنى الإسكندرية ، وأنه علا به ملك فى السماء ، وذهب به إلى السد »[٢] . وإسناده ضعيف ، وفى متنه نكارة ، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بنى إسرائيل ، ذكر معنى هذا ابن كثير فى تفسيره وعزاه إلى ابن جرير والأموى فى مغازيه ؛ ثم قال بعد ذلك : والعجب أن أبا زرعة الرازى مع جلالة قدره ساقه بتمامه فى كتابه دلائل النبوة ، انتهى . وقد ساقه بتمامه السيوطى فى الدر المنثور ، وساق أيضا خبرا طويلا عن وهب بن منبه وعزاه إلى ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم والشيوازى فى الألقاب وأبى الشيخ ، وفيه أشياء منكرة جدا [٣] ، وكذلك ذكر خبرا طويلا عن محمد الباقر أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، ولعل هذه الأخبار ونحوها منقولة عن أهل الكتاب ، وقد أمرنا بأن لا نصدقهم ولا نكذبهم فيما ينقلونه إلينا .

---

(١) صححه الحاكم ١ / ٣٦ على شرط الشيخين وقال : « ولا أعلم له علة » ووافقه الذهبى .
(٢) ابن جرير ١٦ / ٧ والبيهقى فى الدلائل ٦ / ٢٩٦ وابن كثير ٤ / ٤١٨ .
(٣) السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٢٤٢ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وآتيناه من كل شيء سببا** ﴾ قال : علما . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن أبى هلال ؛ أن معاوية بن أبى سفيان قال لكعب الأحبار : أنت تقول : إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ، قال له كعب : إن كنت قلت ذلك فإن الله قال : ﴿ **وآتيناه من كل شيء سببا** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عثمان بن أبى حاضر . أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبى سفيان قرأ الآية التى فى سورة الكهف « تغرب فى عين حامية » قال ابن عباس : فقلت لمعاوية : ما نقرؤها إلا ﴿**حمئة**﴾ فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرؤها ؟ فقال عبد الله : كما قرأتها ، قال ابن عباس : فقلت لمعاوية : فى بيتى نزل القرآن ، فأرسل إلى كعب ، فقال له : أين تجد الشمس تغرب فى التوراة ؟ فقال له كعب : سل أهل العربية فإنهم أعلم بها، وأما أنا فإنى أجد فى التوراة فى ماء وطين وأشار بيده إلى المغرب . قال ابن أبى حاضر: لو أنى عندكما أيدتك بكلام تزداد به بصيرة فى حمئة . قال ابن عباس : وما هو ؟ قلت : فيما نأثر قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين فى كلفه بالعلم واتباعه إياه :

قد كان ذو القرنين عمر مسلما ... ملكا تذل له الملوك وتحشد

فأتى المشارق والمغارب يبتغى ... أسباب ملك من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها ... فى عين ذى خلب وثأط حرمد

فقال ابن عباس : ما الخلب ؟ قلت: الطين بكلامهم ، قال : فما الثأط ؟ قلت : الحمأة . قال : فما الحرمد ؟ قلت : الأسود ؛ فدعا ابن عباس غلاما فقال : اكتب ما يقول هذا الرجل [١] . وأخرج الترمذى وأبو داود الطيالسى وابن جرير وابن المنذر عن أبى بن كعب ؛ أن النبى كان يقرأ : ﴿ **فى عين حمئة** ﴾ [٢] . وأخرج الطبرانى والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا مثله [٣] .

﴿ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ** ﴾

---

(١) ابن جرير مختصرا ١٦ / ٩ ، ١٠ .

(٢) الترمذى فى القراءات (٢٩٣٤) وقال : « حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، والصحيح ما روى عن ابن عباس قراءته » وأبو داود الطيالسى (٥٣٦) وابن جرير ١٦/ ٩ .

(٣) الطبرانى (١٢٤٨٠) وصححه الحاكم ٢/ ٢٤٤ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٥٨ : « رواه الطبرانى فى الصغير عن شيخه الوليد بن العباس المصرى ، ضعفه الدارقطنى » .

نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ﴾ .

ثم حكى سبحانه سفر ذى القرنين إلى ناحية أخرى ، وهى ناحية القطر الشمالى بعد تهيئة أسبابه فقال : ﴿ **ثم أتبع سببا** ﴾ أى طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب ﴿ **حتى إذا بلغ بين السدين** ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص وابن محيصن ويحيى اليزيدى وأبو زيد عن المفضل بفتح السين. وقرأ الباقون بضمها. قال أبو عبيدة وابن الأنبارى وأبو عمرو بن العلاء : السد إن كان بخلق الله سبحانه فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول ، أى هو مما فعله الله وخلقه ، وإن كان من عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثا . وقال ابن الأعرابى : كل ما قابلك فسد ما وراءه فهو سد وسد نحو الضعف والضعف ، والفقر والفقر ، والسدان هما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان ، وانتصاب « بين » على أنه مفعول به كما ارتفع بالفاعلية فى قوله : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام : ٩٤] . وقيل : موضع بين السدين هو منقطع أرض الترك مما يلى المشرق لا جبلا أرمينية وأذربيجان . وحكى ابن جرير فى تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجه إنسانا من ناحية الجزر فشاهده ، ووصف أنه بنيان رفيع وراء خندق وثيق منيع . و﴿ **وجد من دونهما** ﴾ أى من ورائهما مجازا عنهما . وقيل : أمامهما ﴿ **قوما لا يكادون يفقهون قولا** ﴾ قرأ حمزة والكسائى : « يفقهون » بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان ، أى لا يبينون لغيرهم كلاما ، وقرأ الباقون بفتح الياء والقاف ، أى لا يفهمون كلام غيرهم ، والقراءتان صحيحتان ، ومعناهما لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم ، لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم .

﴿ **قالوا** ﴾ أى هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولا . قيل : إن فهم ذى القرنين لكلامهم من جملة الأسباب التى أعطاه الله . وقيل : إنهم قالوا ذلك لترجمانهم ، فقال لذى القرنين بما قالوا له : ﴿ **ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض** ﴾ يأجوج ومأجوج : اسمان عجميان بدليل منع صرفهما ، وبه قال الأكثر . وقيل : مشتقان من أج الظليم فى مشيه : إذا هرول ، وتأججت النار : إذا تلهبت ، قرأهما الجمهور غير همز ، وقرأ عاصم بالهمز . قال ابن الأنبارى : وجه همزهما وإن لم يعرف له أصل أن العرب قد همزت حروفا لا يعرف للهمز فيها أصل كقولهم : كبأت ورثأت واستشأت الريح . قال أبو على : يجوز أن يكونا عربيين ، فمن همز فهو على وزن يفعول مثل: يربوع ، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفا مثل: رأس . وأما مأجوج ، فهو مفعول من أج ، والكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق . قال : وترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة .

واختلف فى نسبهم ، فقيل : هم من ولد يافث بن نوح . وقيل : يأجوج من الترك

ومأجوج من الجيل والديلم . وقال كعب الأحبار : احتلم آدم فاختلط ماؤه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء. قال القرطبى : وهذا فيه نظر ، لأن الأنبياء لا يحتلمون ، وإنما هم من ولد يافث ، كذلك قال مقاتل وغيره .

وقد وقع الخلاف فى صفتهم ، فمن الناس من يصفهم بصغر الجثث وقصر القامة ، ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة ، ومنهم من يقول : لهم مخالب كمخالب السباع ، وإن منهم صنفا يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى ، ولأهل العلم من السلف ومن بعدهم أخبار مختلفة فى صفاتهم وأفعالهم .

واختلف فى إفسادهم فى الأرض ، فقيل : هو أكل بنى آدم . وقيل : هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد . وقيل : كانوا يخرجون إلى أرض هؤلاء القوم الذين شكوهم إلى ذى القرنين فى أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئا أخضر إلا أكلوه .

﴿ **فهل نجعل لك خرجا** ﴾ هذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذى القرنين . وقرئ : «خراجا » . قال الأزهرى : الخراج يقع على الضريبة ويقع على مال الفىء ، ويقع على الجزية وعلى الغلة . والخراج أيضا اسم لما يخرج من الفرائض فى الأموال ، والخرج : المصدر . وقال قطرب : الخرج : الجزية والخراج فى الأرض . وقيل : الخرج : ما يخرجه كل أحد من ماله ، والخراج : ما يجبيه السلطان . وقيل : هما بمعنى واحد ﴿ **على أن تجعل بيننا وبينهم سدا** ﴾ أى ردما حاجزا بيننا وبينهم . وقرئ : ﴿ **سدا** ﴾ بفتح السين . قال الخليل وسيبويه : الضم هو الاسم ، والفتح المصدر . وقال الكسائى . الفتح والضم لغتان بمعنى واحد ، وقد سبق قريبا ما حكيناه عن أبى عمرو بن العلاء وأبى عبيدة وابن الأنبارى من الفرق بينهما . وقال ابن أبى إسحاق: ما رأته عيناك فهو سد بالضم، وما لا ترى فهو سد بالفتح ، وقد قدمنا بيان من قرأ بالفتح وبالضم فى السدين .

﴿ **قال ما مكنى فيه ربى** ﴾ أى قال لهم ذو القرنين : ما بسطه الله لى من القدرة والملك ﴿**خير** ﴾ من خرجكم ، ثم طلب منهم المعاونة له فقال : ﴿ **فأعينونى بقوة** ﴾ أى برجال منكم يعملون بأيديهم ، أو أعينونى بآلات البناء ، أو بمجموعهما . قال الزجاج : بعمل تعملونه معى. قرأ ابن كثير وحده : « ما مكننى » بنونين ، وقرأ الباقون بنون واحدة . ﴿ **أجعل بينكم وبينهم ردما** ﴾ هذا جواب الأمر ، والردم : ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل . قال الهروى: يقال: ردمت الثلمة أردمها بالكسر ردما أى سددتها ، والردم أيضا الاسم ، وهو السد. وقيل : الردم أبلغ من السد ، إذ السد كل ما يسد به ، والردم : وضع الشىء على الشىء من حجارة أو تراب أو نحوهما حتى يقوم من ذلك حجاب منيع ، ومنه ردم ثوبه : إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض ، ومنه قول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم

أى من قول يركب بعضه على بعض. ﴿ **آتونى زبر الحديد** ﴾ أى أعطونى وناولونى ، وزبر الحديد: جمع زبرة ، وهى القطعة. قال الخليل: الزبرة من الحديد: القطعة الضخمة. قال الفراء معنى: ﴿**آتونى زبر الحديد**﴾ ائتونى بها فلما ألقيت الياء زيدت ألفا، وعلى هذا فانتصاب ﴿**زبر**﴾ بنزع الخافض ﴿**حتى إذا ساوى بين الصدفين**﴾ والصدفان: جانبا الجبل. قال الأزهرى: يقال لجانبى الجبل صدفان :إذا تحاذيا لتصادفهما، أى تلاقيهما، وكذا قال أبو عبيدة والهروى. قال الشاعر :

كلا الصدفين ينفده سناها توقد مثل مصباح الظلام

وقد يقال لكل بناء عظيم مرتفع :صدف ، قاله أبو عبيدة ، قرأ نافع وحمزة والكسائى وحفص: ﴿ **الصدفين** ﴾ بفتح الصاد والدال . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب واليزيدى وابن محيصن بضم الصاد والدال . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر بضم الصاد وسكون الدال . وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد ؛ لأنها أشهر اللغات ، ومعنى الآية : أنهم أعطوه زبر الحديد ، فجعل يبنى بها بين الجبلين حتى ساواهما ﴿**قال انفخوا** ﴾ أى قال للعملة : انفخوا على هذه الزبر بالكيران ﴿ **حتى إذا جعله نارا**﴾ أى جعل ذلك المنفوخ فيه ، وهو الزبر نارا ، أى كالنار فى حرها وإسناد الجعل إلى ذى القرنين مجاز لكونه الآمر بالنفخ . قيل : كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى يتحمى ، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار ، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة ، وهو معنى قوله : ﴿ **قال آتونى أفرغ عليه قطرا** ﴾ قال أهل اللغة : القطر : النحاس الذائب ، والإفراغ : الصب، وكذا قال أكثر المفسرين . وقالت طائفة: القطر : الحديد المذاب. وقالت فرقة أخرى منهم ابن الأنبارى : هو الرصاص المذاب .

﴿ **فما اسطاعوا** ﴾ أصله : استطاعوا ، فلما اجتمع المتقاربان ، وهما التاء والطاء خففوا بالحذف . قال ابن السكيت : يقال : ما أستطيع ، وما أسطيع ، وما أستيع . وبالتخفيف قرأ الجمهور ، وقرأ حمزة وحده :« فما اسطاعوا » بتشديد الطاء كأنه أراد استطاعوا فأدغم التاء فى الطاء وهى قراءة ضعيفة الوجه ، قال أبو على الفارسى : هى غير جائزة . وقرأ الأعمش : «فما استطاعوا » على الأصل ، ومعنى ﴿ **أن يظهروه** ﴾ أن يعلوه أى فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته ﴿ **وما استطاعوا له نقبا** ﴾ يقال : نقبت الحائط : إذا خرقت فيه خرقا فخلص إلى ما وراءه. قال الزجاج : ما قدروا أن يعلوا عليه لارتفاعه واملاسه، وما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لشدته وصلابته .

﴿ **قال هذا رحمة من ربى** ﴾ أى قال ذو القرنين مشيرا إلى السد: هذا السد رحمة من ربى، أى أثر من آثار رحمته لهؤلاء المتجاوزين للسد ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرتهم لو لم يكن ذلك السد. وقيل : الإشارة إلى التمكين من بنائه ﴿ **فإذا جاء وعد ربى** ﴾ أى أجل ربى أن يخرجوا منه . وقيل : هو مصدر بمعنى المفعول ، وهو يوم القيامة ﴿ **جعله دكاء** ﴾ أى مستويا

بالأرض ومنه قوله : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا ﴾ [الفجر : ٢١] . قال الترمذى : أى مستويا، يقال: ناقة دكاء : إذا ذهب سنامها. وقال القتيبى : أى جعله مدكوكا ملصقا بالأرض. وقال الكلبى : قطعا متكسرا . قال الشاعر :

هل غير غاد دك غارا فانهدم

قال الأزهرى : دككته ، أى دققته. ومن قرأ: ﴿ **دكاء** ﴾ بالمد وهو عاصم وحمزة والكسائى أراد التشبيه بالناقة الدكاء ، وهى التى لا سنام لها ، أى مثل دكاء ، لأن السد مذكر فلا يوصف بدكاء . وقرأ الباقون :« دكا » بالتنوين على أنه مصدر ، ومعناه ما تقدم ، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الحال، أى مدكوكا ﴿ **وكان وعد ربى حقا**﴾ أى وعده بالثواب والعقاب ، أو الوعد المعهود حقا ثابتا لا يتخلف ، وهذا آخر قول ذى القرنين .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حتى إذا بلغ بين السدين** ﴾ قال :الجبلين أرمينية وأذربيجان . وأخرج أيضا عن ابن جريج ﴿ **لا يكادون يفقهون قولا** ﴾ قال : الترك . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : يأجوج ومأجوج شبر وشبران وأطولهم ثلاثة أشبار ، وهم من ولد آدم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث ، وابن عساكر عن ابن عمرو عن النبى ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا ، وإن من ورائهم ثلاث أمم : تاويل ، وتاريس ، ومنسك » . وأخرج النسائى من حديث عمرو بن أوس عن أبيه مرفوعا : « أنه لا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا » [1] وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجه وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض يحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستفتحونه غدا ، فيعودون إليه أشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستفتحونه غدا إن شاء الله ، ويستثنى فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء ، فيقولون : قهرنا من فى الأرض وعلونا من فى السماء قسرا وعلوا ، فيبعث الله عليهم نغفا فى أقفائهم فيهلكون » ، قال رسول الله ﷺ : « فوالذى نفس محمد بيده ، إن دواب الأرض لتسمن

---

(١) النسائى فى التفسير (٣٥٤) وإسناده ضعيف ؛لأن فى إسناده ابن عمرو بن أوس ولا يعرف حاله ولم يذكر فيه جرح ولا تعديل ، ولم يرو عنه غير النعمان بن سالم .

وتبطر وتشكر شكرا من لحومهم » [١] وقد ثبت فى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت : استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : « لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق ، قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثر الخبث » [٢] .

وأخرجا نحوه من حديث أبى هريرة مرفوعا [٣] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فهل نجعل لك خرجا** ﴾ قال : أجرا عظيما . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ردما** ﴾ قال : هو كأشد الحجاب . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ **زبر الحديد** ﴾ قال : قطع الحديد . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ **بين الصدفين** ﴾ . قال: الجبلين. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : رؤوس الجبلين . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قطرا** ﴾ قال : النحاس . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **فما اسطاعوا أن يظهروه** ﴾ قال : أن يرتقوه . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : أن يعلوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **جعله دكاء**﴾ قال : لا أدرى الجبلين يعنى به أم بينهما .

﴿ **وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨)** ﴾ .

---

(١) أحمد ٢/ ٥١٠ ، ٥١١ والترمذى فى التفسير (٣١٥٣) وقال : « حسن غريب » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٨٠) وفى الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » وابن حبان (٦٧٩٠) . ومعنى « نغفا » بفتح النون والغين المعجمة : هو ما يكون فى أنوف الإبل والغنم ، جمع نغفة .

(٢) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٦) وفى المناقب (٣٥٩٨) وفى الفتن (٧٠٥٩ ، ٧١٣٥) ومسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٠/١ ، ٢) .

(٣) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٧) وفى الفتن (٧١٣٦) ومسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨١/٣) .

قوله : ﴿ **وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض** ﴾ هذا من كلام الله سبحانه بعد انقضاء كلام ذى القرنين ، والضمير فى ﴿ **بعضهم** ﴾ ليأجوج ومأجوج ، أى تركنا بعض يأجوج ومأجوج يوم مجىء الوعد ، أو يوم خروج يأجوج ومأجوج يموج فى بعض آخر منهم ، يقال : ماج الناس : إذا دخل بعضهم فى بعض حيارى كموج الماء ، والمعنى : أنهم يضطربون ويختلطون . وقيل : الضمير فى ﴿ **بعضهم** ﴾ للخلق ، واليوم :يوم القيامة ، أى وجعلنا بعض الخلق من الجن والإنس يموج فى بعض . وقيل : المعنى : وتركنا يأجوج ومأجوج يوم كمال السد وتمام عمارته بعضهم يموج فى بعض ، وقد تقدم تفسير ﴿ **ونفخ فى الصور** ﴾ فى الأنعام . قيل : هى النفخة الثانية بدليل قوله بعد :﴿ **فجمعناهم جمعا** ﴾ فإن الفاء تشعر بذلك ، ولم يذكر النفخة الأولى، لأن المقصود هنا ذكر أحوال القيامة ، والمعنى : جمعنا الخلائق بعد تلاشى أبدانهم ومصيرها ترابا جمعا تاما على أكمل صفة وأبدع هيئة وأعجب أسلوب .

﴿ **وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا** ﴾ المراد بالعرض هنا : الإظهار ، أى أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها يوم جمعنا لهم ، وفى ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفزع والروعة ، ثم وصف الكافرين المذكورين بقوله : ﴿ **الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى** ﴾ أى كانت أعينهم فى الدنيا فى غطاء ، وهو ما غطى الشىء وستره من جميع الجوانب ﴿ **عن ذكرى** ﴾ عن سبب ذكرى ، وهو الآيات التى يشاهدها من له تفكر واعتبار فيذكر الله بالتوحيد والتمجيد ، فأطلق المسبب على السبب ، أو عن القرآن العظيم ، وتأمل معانيه وتدبر فوائده . ثم لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما، أراد أن يصفهم بالصمم عن استماع الحق فقال : ﴿ **وكانوا لا يستطيعون سمعا**﴾ أى لا يقدرون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله ، وهذا أبلغ مما لو قال : وكانوا صما ، لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به ، وهؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية ، وفى ذكر غطاء الأعين وعدم استطاعة السماع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالأبصار وإعراضهم عن الأدلة السمعية .

﴿ **أفحسب الذين كفروا** ﴾ الحسبان هنا بمعنى: الظن ، والاستفهام : للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره . والمعنى : أفظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر آيات الله وتمردهم عن قبول الحق ، ومعنى : ﴿ **أن يتخذوا عبادى من دونى** ﴾ أى يتخذوهم من دون الله ، وهم الملائكة والمسيح والشياطين ﴿**أولياء**﴾ أى معبودين ، قال الزجاج : المعنى : أيحسبون أن ينفعهم ذلك ، وقرئ : « أفحسب » بسكون السين، ومعناه : أكافيهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على أنه مبتدأ وخبر ، يريد أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا ﴿ **إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا** ﴾ أى هيأناها لهم نزلا يتمتعون به عند ورودهم. قال الزجاج : النزل المأوى والمنزل . وقيل : إنه الذى يعد للضيف ، فيكون تهكما بهم كقوله :

﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [الانشقاق : ٤] ، والمعنى : أن جهنم معدة لهم عندنا كما يعد النزل للضيف.

﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا** ﴾ انتصاب ﴿ **أعمالا** ﴾ على التمييز ، والجمع للدلالة على إرادة الأنواع منها ، ومحل الموصول وهو ﴿ **الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا** ﴾ الفعل على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قيل: من هم ؟ فقيل : هم الذين ضل سعيهم ، والمراد بضلال السعى : بطلانه وضياعه ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الذم ، ويكون الجواب : ﴿**أولئك الذين كفروا بآيات ربهم** ﴾ ويجوز أن يكون فى محل جر على أنه نعت لـ﴿**الأخسرين**﴾ أو بدل منه ، ويكون الجواب أيضا هو أولئك وما بعده ، وأول هذه الوجوه هو أولاها ، وجملة: ﴿ **وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **ضل** ﴾ ، أى والحال أنهم يظنون أنهم محسنون فى ذلك منتفعون بآثاره ، وتكون جملة ﴿**أولئك الذين كفروا بآيات ربهم** ﴾ مستأنفة مسوقة لتكميل الخسران وبيان سببه ، هذا على الوجه الأول الراجح لا على الوجوه الآخرة ، فإنها هى الجواب كما قدمنا ، ومعنى كفرهم بآيات ربهم : كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية والتنزيلية ، ومعنى كفرهم بلقائه : كفرهم بالبعث وما بعده من أمور الآخرة ، ثم رتب على ذلك قوله : ﴿ **فحبطت أعمالهم** ﴾ أى التى عملوها مما يظنونه حسنا ، وهو خسران وضلال ، ثم حكم عليهم بقوله : ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا** ﴾ أى لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعبأ بهم . وقيل : لا يقام لهم ميزان توزن به أعمالهم ، لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ، وهؤلاء لا حسنات لهم . قال ابن الأعرابى : العرب تقول : ما لفلان عندنا وزن ، أى قدر لخسته ، ويوصف الرجل بأنه لا وزن له لخفته ، ومسرعة طيشه، وقلة تثبته . والمعنى على هذا : أنهم لا يعتد بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة، وقرأ مجاهد : « يقيم » بالياء التحتية ، أى فلا يقيم الله ، وقرأ الباقون بالنون .

ثم بين سبحانه عاقبة هؤلاء وما يؤول إليه أمرهم فقال : ﴿ **ذلك** ﴾ أى : الذى ذكرناه من أنواع الوعيد جزاؤهم، ويكون قوله: ﴿ **جهنم** ﴾ عطف بيان للجزاء، أو جملة ﴿**جزاؤهم جهنم**﴾ مبتدأ وخبر، والجملة خبر ﴿ **ذلك**﴾ ، والسبب فى ذلك أنهم ضموا إلى الكفر اتخاذ آيات الله واتخاذ رسله هزوا ، فالباء فى ﴿ **بما كفروا** ﴾ للسببية ، ومعنى كونهم هزوا : أنهم مهزوء بهم. وقد اختلف السلف فى تعيين هؤلاء الأخسرين أعمالا . فقيل : اليهود والنصارى. وقيل : كفار مكة . وقيل : الخوارج . وقيل : الرهبان أصحاب الصوامع . والأولى حمل الآية على العموم لكل من اتصف بتلك الصفات المذكورة .

ثم ذكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين فقال : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أى جمعوا بينهما حتى كانوا على ضد صفة من قبلهم ﴿ **كانت لهم** ﴾ قال ابن الأنبارى : كانت فيما سبق من علم الله كانت لأهل طاعته ﴿ **جنات الفردوس نزلا** ﴾ قال

المبرد : الفردوس فيما سمعت من كلام العرب : الشجر الملتف والأغلب عليه العنب . واختار الزجاج ما قاله مجاهد : إن الفردوس : البستان باللغة الرومية ، وقد تقدم بيان النزل ، وانتصابه على أنه خبر كان . والمعنى : كانت لهم ثمار جنة الفردوس نزلا معدا لهم مبالغة فى إكرامهم ، وانتصاب ﴿ **خالدين فيها** ﴾ على الحال ، وكذلك جملة : ﴿ **لا يبغون عنها حولا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والحول : مصدر ، أى لا يطلبون تحولا عنها إذ هى أعز من أن يطلبوا غيرها، أو تشتاق أنفسهم إلى سواها . قال ابن الأعرابى وابن قتيبة والأزهرى: الحول اسم بمعنى : التحول يقوم مقام المصدر ، وقال أبو عبيدة والفراء : إن الحول التحويل .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وتركنا بعضهم** ﴾ الآية قال : الجن والإنس ﴿ **يموج** ﴾ بعضهم ﴿**فى بعض** ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لا يستطيعون سمعا** ﴾ قال : لا يعقلون سمعا . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر عن على أنه قرأ : « أفحسب الذين كفروا » قال أبو عبيد بجزم السين وضم الباء . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة أنه قرأ كذلك .

وأخرج عبد الرزاق والبخارى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وابن مردويه من طريق مصعب بن سعد قال : سألت أبى ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا**﴾ أهم الحرورية ؟ قال : لا هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمدا ﷺ وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية : الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وكان سعد يسميهم الفاسقين (١) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن مصعب قال : قلت لأبى : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا** ﴾ الحرورية هم ؟ قال : لا ولكنهم أصحاب الصوامع . والحرورية قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى حميضة عبد الله بن قيس قال : سمعت على بن أبى طالب يقول : فى هذه الآية ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا**﴾ : إنهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى السوارى . وأخرج ابن مردويه عن أبى الطفيل قال: سمعت على بن أبى طالب وسأله ابن الكواء فقال: ﴿**هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا**﴾ قال : فجرة قريش . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريقين عن على أنه سئل عن هذه الآية : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا** ﴾ قال : لا أظن إلا أن

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٢٨) والنسائى فى التفسير (٣٣٣) وابن جرير ١٦/ ٢٧ وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٠ ووافقه الذهبى. والحرورية: نسبة إلى حروراء، وهى القرية التى كان ابتداء خروج الخوارج على على ـ رضى الله عنه ـ منها .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٣٧٠ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

الخوارج منهم . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » ، وقال : « اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا** ﴾ »(١) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وابن مردويه عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « سلوا الله الفردوس ، فإنها سرة الجنة ، وإن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش »(٢) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأحمد والترمذى وابن جرير والحاكم والبيهقى وابن مردويه عن عبادة بن الصامت أن النبى ﷺ قال: « إن فى الجنة مائة درجة ، كل درجة منها ما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومن فوقها يكون العرش ، ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس » (٤) والأحاديث بهذا المعنى كثيرة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : الفردوس بستان بالرومية . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدي قال : هو الكرم بالنبطية ، وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن المنذر عن عبد الله بن الحارث ؛ أن ابن عباس سأل كعبا عن الفردوس قال : هى جنات الأعناب بالسريانية ، وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لا يبغون عنها حولا** ﴾ قال : متحولا .

﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)** ﴾ .

لما ذكر سبحانه أنواع الدلائل نبه على كمال القرآن فقال : ﴿ **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى** ﴾ قال ابن الأنبارى : سمى المداد مدادا لإمداده الكاتب ، وأصله من الزيادة ومجىء الشىء بعد الشىء ، ويقال للزيت الذى يوقد به السراج: مداد ، والمراد بالبحر هنا : الجنس . والمعنى:

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٢٩) ومسلم فى صفات المنافقين (١٨/٢٧٨٥) .

(٢) الطبرانى (٧٩٦٦) والحاكم ٢/ ٣٧١ وقال : « هذا حديث لم نكتبه إلا من هذا الإسناد ولم نجد بدا من إخراجه » . وقال الذهبى : « جعفر هالك » . وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٤٠١ : « رواه الطبرانى وفيه جعفر بن الزبير وهو متروك » .

(٣) البخارى فى الجهاد (٢٧٩٠) وفى التوحيد (٧٤٢٣) وأحمد ٢/ ٣٣٣، ٣٣٩ .

(٤) ابن أبى شيبة (١٥٩٢٣) وأحمد ٥/ ٣١٦ ، ٣٢١ والترمذى فى صفه الجنة (٢٥٣١) ، وابن جرير ١٦/ ٣٠ والحاكم ١/ ٨٠ .

لو كتبت كلمات علم الله وحكمته ، وفرض أن جنس البحر مدادا لها لنفد البحر قبل نفود الكلمات ، ولو جئنا بمثل البحر مدادا لنفد أيضا . وقيل فى بيان المعنى : لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب ﴿ **لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى** ﴾ وقوله : ﴿ **ولو جئنا بمثله مددا** ﴾ كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله: ﴿ **قل لو كان** ﴾ وفيه زيادة مبالغة وتأكيد، والواو لعطف ما بعده على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها ، أى لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته لو لم يجئ بمثله مددا ولو جئنا بمثله مددا ، والمدد : الزيادة . وقيل : عنى سبحانه بالكلمات الكلام القديم الذى لا غاية له ولا منتهى ، وهو وإن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من الفوائد ، وقد عبرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع ، قال الأعشى :

ووجه نقى اللون صاف يزينه ... مع الجيد لبات لها ومعاصم

فعبر باللبات عن اللبة . قال الجبائى : إن قوله : ﴿ **قبل أن تنفد كلمات ربى** ﴾ يدل على أن كلماته قد تنفد فى الجملة، وما ثبت عدمه امتنع قدمه . وأجيب بأن المراد الألفاظ الدالة على متعلقات تلك الصفة الأزلية . وقيل فى الجواب : إن نفاد شىء قبل نفاد شىء آخر لا يدل على نفاد الشىء الآخر ، ولا على عدم نفاده ، فلا يستفاد من الآية إلا كثرة كلمات الله بحيث لا تضبطها عقول البشر ، أما أنها متناهية ، أو غير متناهية فلا دليل على ذلك فى الآية . والحق أن كلمات الله تابعة لمعلوماته ، وهى غير متناهية ، فالكلمات غير متناهية . وقرأ مجاهد وابن محيصن وحميد : « ولو جئنا بمثله مدادا» وهى كذلك فى مصحف أبى ، وقرأ الباقون : ﴿**مددا**﴾ وقرأ حمزة والكسائى: « قبل أن ينفد » بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية .

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يسلك مسلك التواضع ، فقال : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم** ﴾ أى : إن حالى مقصور على البشرية لا يتخطاها إلى الملكية ، ومن كان هكذا فهو لا يدعى الإحاطة بكلمات الله إلا أنه امتاز عنهم بالوحى إليه من الله سبحانه فقال : ﴿ **يوحى إلى** ﴾ وكفى بهذا الوصف فارقا بينه وبين سائر أنواع البشر ، ثم بين أن الذى أوحى إليه هو قوله: ﴿**أنما إلهكم إله واحد** ﴾ لا شريك له فى ألوهيته ، وفى هذا إرشاد إلى التوحيد ، ثم أمرهم بالعمل الصالح والتوحيد فقال: ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الرجاء : توقع وصول الخير فى المستقبل ، والمعنى: من كان له هذا الرجاء الذى هو شأن المؤمنين ﴿ **فليعمل عملا صالحا** ﴾ وهو ما دل الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله ﴿ **ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ من خلقه سواء كان صالحا، أو طالحا، حيوانا أو جمادا ، قال الماوردى : قال جميع أهل التأويل فى تفسير هذه الآية : إن المعنى لا يرائى بعمله أحدا . وأقول : إن دخول الشرك الخفى الذى هو الرياء ، ولا مانع من دخول هذا الخفى تحتها ، إنما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لكلمات ربى** ﴾ يقول : علم ربى . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : يقول ينفد ماء البحر قبل أن ينفد كلام الله

وحكمته . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الآية قال : أنزلت فى المشركين الذين عبدوا مع الله إلها غيره، وليست هذه فى المؤمنين [١] . وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقى عن ابن عباس قال: قال رجل: يا نبى الله ، إنى أقف المواقف أبتغى وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى ، فلم يرد عليه شيئا حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ [٢] . وأخرج ابن منده ، وأبو نعيم فى الصحابة ، وابن عساكر من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له ، فزاد فى ذلك لقالة الناس فلا يريد به الله ، فنزل فى ذلك : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال :قال رجل : يا رسول الله ، أعتق وأحب أن يرى ، وأتصدق وأحب أن يرى ، فنزلت : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الآية وهو مرسل . وأخرجه هناد فى الزهد عنه أيضا .

وأخرج ابن سعد وأحمد والترمذى وابن ماجة ، والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى وكان من الصحابة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى مناد : من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » [٣] . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى عن أبى هريرة ؛ أن رجلا قال : يا رسول الله ، الرجل يجاهد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا من الدنيا ؟ فقال : « لا أجر له » ، فأعظم الناس ذلك ، فعاد الرجل فقال : « لا أجر له » [٤] . وأخرج ابن أبى الدنيا فى الإخلاص ، وابن جرير فى تهذيبه ، والطبرانى والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن شداد بن أوس قال : كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ : الشرك الأصغر . وأخرج الطيالسى وأحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن شداد بن أوس أيضا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من صلى يرائى فقد أشرك ، ومن صام يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك » ، ثم قرأ : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الآية [٥] . وأخرج الطيالسى وأحمد وابن مردويه وأبو نعيم عن شداد أيضا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بى ، من أشرك بى شيئا فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذى

---

(١) البيهقى فى الشعب (٦٨٥٣) . ط . الكتب العلمية .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ١١١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٨٥٤) ط . الكتب العلمية.

(٣) أحمد ٤/ ٢١٥ والترمذى فى التفسير (٣١٥٤) وقال : « غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن بكر » وابن ماجة فى الزهد (٤٢٠٣) والبيهقى فى الشعب (٦٨١٧) . ط . الكتب العلمية .

(٤) صححه الحاكم ٢/ ٣٧١ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٨٤٠) . ط .الكتب العلمية .

(٥) الطيالسى (١١٢٠) وأحمد ٤/ ١٢٦ والطبرانى (٧١٣٩) والحاكم ٤/ ٣٢٩ وسكت عنه والذهبى أيضا ، والبيهقى فى الشعب (٦٨٤٤) .ط. الكتب العلمية .

أشـركه أنا عنه غنى » [١] . وأخرج أحمد والحكيم الترمذى ، وابن جرير فى تهذيبه ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيخ ؟ الشرك الخفى ؛ أن يقوم الرجل يصلى لمكان رجل » [٢] . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن شداد بن أوس سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية » ، قلت : أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : « نعم ، أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ، ولكن يراؤون الناس بأعمالهم » قلت : يا رسول الله ، ما الشهوة الخفية ؟ قال : «يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته » [٣] . وأخرج أحمد ومسلم وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ عن ربه أنه قال: « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه، وهـو للـذى أشـرك » وفى لفظ : « فمن أشرك بى أحدا فهو له كله » [٤] وفى الباب أحاديث كثيرة فى التحذير من الرياء وأنه الشرك الأصغر ، وأن الله لا يقبله ، وقد استوفاها صاحب الدر المنثور فى هذا الموضع فليرجع إليه ، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية ، بل الشرك الجلى يدخل تحتها دخولا أوليا ، وعلى فرض أن سبب النزول هو الرياء كما يشير إلى ذلك ما قدمنا، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما هو مقرر فى علم الأصول .

وقد ورد فى فضائل هذه الآية بخصوصها ما أخرجه الطبرانى وابن مردويه عن أبى حكيم قال : قال رسول الله ﷺ : « لو لم ينزل على أمتى إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم » . وأخرج ابن راهويه والبزار ، والحاكم وصححه ، والشيرازى فى الألقاب ، وابن مردويه عن عمر ابن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ فى ليلة : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الآية ، كان له نور من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة » قال ابن كثير بعد إخراجه : غريب جدا [٥] . وأخرج ابن الضريس عن أبى الدرداء قال : من حفظ خاتمة الكهف كان له نور يوم القيامة من لدن قرنه إلى قدمه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن معاوية بن أبى سفيان ، أنه تلا هذه الآية: ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن . قال ابن كثير:

---

(١) الطيالسى (١١٢١) وأحمد ٤/ ١٢٦ وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٢٦٩ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢٢٤ : «رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب وثقه أحمد وغيره وضعفه غير واحد ، وبقية رجاله ثقات» .

(٢) أحمد ٣/ ٣٠ وصححه الحاكم ٤/ ٣٢٩ ووافقه الذهبى .

(٣) أحمد ٤/ ١٢٤ والطبرانى (٧١٤٤) وصححه الحاكم ٤/ ٣٣٠ وقال الذهبى : « عبد الواحد متروك » والبيهقى فى الشعب (٦٨٣٠) .ط . الكتب العلمية . ورواية الطبرانى فيها : « الحارث بن نبهان وعبد الواحد بن زيد وهما متروكان » .

(٤) أحمد ٢ / ٣٠١ ومسلم فى الزهد (٢٩٨٥/ ٤٦) والبيهقى فى الشعب (٦٨١٥) . ط . الكتب العلمية.

(٥) صححه الحاكم ٢/ ٣٧١ وقال الذهبى : « أبو قرة فيه جهالة ولم يضعف » وابن كثير ٤/ ٤٣٦ .

وهذا أثر مشكل ، فإن هذه الآية هى آخر سورة الكهف ، والكهف كلها مكية ، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ولا يغير حكمها ، بل هى مثبتة محكمة ، فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه [١] .

(١) ابن جرير ١٦/ ٣٢ ، وابن كثير ٤/ ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

obeikandl.com